ذكر استيلاء الفرنج على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس

لم يكن جميع ما استولوا عليه مما نذكره داخلا في ملك الدولة العبيدية، بل كان منه ما هو في أيدي نواب المستعلي، وما هو بيد الملوك الذين تغلبوا على الأطراف، ولم يكن أيضا في أيام المستعلي خاصة ، وإنما أوردناه بجملته في هذا الوضع لتكون الأخبار متتابعة ولا تنقطع بالسنين والدول. وقد نبهنا عليه فيما تقدم من أخبار الدولة العباسية .

والذي نذكره الآن في هذا الموضع هو ما استولوا عليه من سواحل الشام سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وما بعدها.

كان ابتداء ظهورهم وامتدادهم وتطرقهم إلى البلاد الإسلامية في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وذلك أن بلاد الأندلس لما تقسم ملوكها بعد بني أمية وصارت كل جهة بيد ملك، وأنفت نفس كل واحد أن ينقاد إلى الآخر ، ويدخل تحت طاعته، فكانوا كملوك الطوائف في زمن الفرس، وعجز كل واحد عن مقاومة من يليه أو يقصده من الفرنج، أدى ذلك إلى اختلال الأحوال، وتغلب الأعداء على البلاد الإسلامية . فأول ما استولوا عليه مدينة طليطلة من الأندلس، على ما ذكرناه في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ثم ملكوا جزيرة صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئا ثم استرجع منهم، على ما قدمناه

ذكر ملكهم مدينة انطاكية

كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على مدينة أنطاكية في جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. وكانت بيد ملوك الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى أن افتتحها الملك سليمان بن شهاب الدين

ولد قتلمش السلجقي، صاحب أقصراوقونية وغير ذلك من بلاد الروم في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية، وبقيت في يده إلى أن قتل . وتداولتها أيدي المتغلبين من ملوك الإسلام وأمرائهم إلى أن استقرت بيد ياغي سيان، وهو يخطب فيها للملك رضوان بن تتش صاحب حلب، ولأخيه الملك دقاق صاحب دمشق.

فلما كان في سنة تسعين وأربعمائة جمع بغدوين ملك الفرنج جمعا كثيرا من الفرنج، وكان نسيب رجار الفرنجي صاحب صقلية، فأرسل إليه بغدوين يقول: قد جمعت جمعا كثيرا وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية وأكون مجاورا لك .

فجمع رجار أصحابه واستشارهم فقالوا كلهم: هذا جيد لنا ولهم، وتصبح كلها للنصرانية. فلما سمع رجار كلامهم وما اجتمعوا عليه، رفع رجليه وحبق حبقة قوية، وقال: وحق ديني هذه خير من كلامكم قالوا: وكيف ذلك؟ قال إذا وصلوا إلي احتجت إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى إفريقية، وعساكر من جهتي، فإن فتحوا البلاد وكانت لهم صارت مؤونتهم من صقليةوينقطع عني ما يصل إلي من المال من ثمن الغلات في كل سنة، وإن لم يفتحوها رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم،ويقول تميم، صاحب إفريقية غدرت بي ونقضت عهدي، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبين بلاد إفريقية، وإفريقية باقية متى وجدنا قوة أخذناها بها.

ثم أحضر رسوله وقال له:إذا عزمتم على جهاد المسلمين فاقصدوا بذلك فتح بيت المقدس وخلصوه من أيديهم، ويكون لكم الفخر، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود ، فاخرجوا إلى الشام.

وقيل إن المستنصر، أو المستعلي لما رأى قوة الدولة السلجقية وتمكنها، وأنهم استولوا على ملك بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، راسل الفرنج يدعوهم إلى الخروج إلى الشام، ليملكوه، ويكونوا بينه وبين المسلمين، والله تعالى أعلم.

فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى قسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد الإسلام ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم ، فمنعهم ملك الروم من ذلك، ولم يمكنهم أن يمروا ببلاده، وقال: لاأمكنكم من العبور إلا أن تحلفوا أنكم تسلمون إلي أنطاكية، وكان قصده أن يحثهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظنا منه أن الترك لايبقون منهم أحدا لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد.

فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج في سنة تسعين وأربعمائة. ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، فلقيهم في جموعه ومنعهم، فقاتلوه وهزموه، وذلك في شهر رجب منها، ومروا في بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمني، فسلكوها وخرجوا منها إلى أنطاكية، فحصروها.

قال المؤرخ : فلما سمع صاحبها ياغي سيان بتوجههم إليها خاف من النصارى الذين بها، فأخرج من بها من المسلمين بمفردهم في أول يوم وأمرهم أن يحفروا الخندق ، ثم أخرج النصارى من الغد لذلك . فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم ، وقال لهم: أنطاكية لكم فهبوها لي حتى أنظر ما يكون بيننا وبين الفرنج، فقالوا: من يحفظ أولادنا ونساءنا؟ فقال: أنا أخلفكم فيهم، فأمسكوا ثم صاروا في عسكر الفرنج.

وحصرت أنطاكية تسعة أشهر، وظهر من حزم ياغي سيان واحتياطه وجودة رأيه ما لم يشاهد مثله، وهلك أكثر الفرنجة موتا وقتلا، وحفظ ياغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم، وكف الأيدي عنهم فلما طال مقام الفرنج عليها راسلوا أحد المستحفظين للأبراج، وهو زراد، ويعرف بروزبة، وبذلوا له مالا وإقطاعا، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي، وهو مبني على شباك في الوادي.

فلما تقرر الأمر بينهم وبينه، جاءوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه، وصعد جماعة كبيرة منهم بالحبال، فلما زادت عدتهم على خمسمائة، ضربوا البوق وذلك عند السحر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة، فاستيقظ ياغي سيان وسأل عن الحال فقيل له: هذا البوق من القلعة، ولا شك أنها قد أخذت. ولم يكن من القلعة وإنما من ذلك البرج.

فداخله الرعب، ففتح باب البلد وهرب في ثلاثين غلاما، وجاء نائبه ليحفظ البلد، فقيل له: إنه قد هرب، فخرج من الباب الآخر هاربا. وكان ذلك إعانة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا.

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من بابه، ونهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين.

وأما ياغي سيان، فإنه لما طلع عليه النهار رجع إلى عقلة وكان كالوهان فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فقال لمن معه: أين أنا؟ فقالوا: على أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالما ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل.

وجعل يتلهف على ترك أهله وأولاده والمسلمين، ويسترجع، فسقط عن فرسه لشدة ما ناله، وغشي عليه. فأراد أصحابه أن يركبوه فلم يكن فيه مسكة، وكان قد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه فاجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله، وحمل رأسه إلى الفرنج بأنطاكية.

ذكر مسير المسلمين لحرب الفرنج وما كان من أمرهم

قال: ولما وصل خبر أنطاكية بالأمير قوام الدين كربوقا صاحب الموصل، جمع العساكر وسار بهم لحربهم واجتمع معه الملك دقاق صاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب سنجار، فلما بلغ الفرنج اجتماعهم عظمت عليهم المصيبة وداخلهم الخوف، لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات، وسار المسلمون حتى نازلوا أنطاكية، فأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين، فأغضبهم ذلك وأضمروا في أنفسهم الغدر به إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند الصدمة.

قال: وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها ثلاثة عشر يوما ليس لهم ما يأكلونه، فتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما انتهت حالهم إلى ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم، وقال: لا تخرجون منه إلا بالسيف.

وكان معهم من الملوك: بغدوين ، وصنجيل وكندفري، والقمص صاحب الرها، وبيمند صاحب أنطاكية وهو مقدم العسكر. وكان معهم راهب مطاع فيهم فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق.

وكان هو قد دفنها قبل ذلك وعفى أثرها. وأمرهم بالصوم ثلاثة أيام والتوبة، ففعلوا ذلك، فلما كان في اليوم الرابع أدخلهم جميعهم وجميع عامتهم والصناع، وحفروا عليها في ذلك المكان فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: أبشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب بين خمسة وستة ونحو ذلك، فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن سهل، فقال: أمهلوهم حتى يتكاملوا، ولم يمكن من معاجلتهم، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم.

فلما تكامل خروج الفرنج ، ولم يبق منهم أحد بأنطاكية ضربوا مصافا عظيما، فانهزم العسكر الإسلامي لما عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، فتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم، وآخر من انهزم سقمان بن أرتق، وجناح الدولة، لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، فخافوا أن يتبعوهم، وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة ورغبة في الشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفا، وغنموا ما في العسكر من الأقوات، والأموال، والآلات، والدواب، وغير ذلك، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم.

ذكر ملكهم معرة النعمان

قال المؤرخ : ثم سار الفرنج إلى معرة النعمان، فنازلوها وحصروها، وقاتلهم أهلها قتالا شديدا، فرأى الفرنج منهم شدة ونكاية عظيمة. فعمل الفرنج عند ذلك برجا من خشب يوازي سور المدينة، ووقع

القتال عليه، فصبر المسلمون على القتال إلى الليل، ثم خاف قوم منهم وفشلوا، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها، فنزلوا عن السور وأخلوا مكانهم الذي كانوا يحفظونه، وفعلت طائفة أخرى مثل ذلك ولم تزل كل طائفة منهم تتبع الأخرى حتى خلا السور، فصعد الفرنج إليه على السلاليم، فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم ، ووضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير.

وأقاموا بها أربعين يوما وساروا إلى عرقة، فحصروها أربعة أشهر ، ونقبوا سورها عدة نقوب ولم يقدروا عليها. وراسلهم ابن منقذ صاحب شيزر، وصالحهم عليها، ثم ساروا إلى حمص وحصروها ، فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا فلم يقدروا عليها، فساروا إلى البيت المقدس.

ذكر استيلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس

كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على البيت المقدس في يوم الجمعة، ضحى، لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان إذ ذاك بيد افتخار الدولة نيابة عن المستعلي بالله. فإنه كان بيد تاج الدولة تتش السلجقي صاحب الشام، وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني، فجاءه الأفضل أمير الجيوش واستولى عليه، وبقي بيد نوابه إلى الآن ، فقصده الفرنج عند عجزهم عن فتح عكا، وحصروه نيفا وأربعين يوما، ونصبوا عليه برجين، أحدهما من ناحية صهيون، فأحرقه المسلمون وقتلوا جميع من فيه من الفرنج.

فلما فرغوا من ذلك أتاهم الصارخ أن المدينة قد امتلكت من الجانب الآخر، وهو الجانب الشمالي، وركب الناس السيف ولبث الفرنج أسبوعا يقتلون فيهم.

واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام،

فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم، فوفوا لهم، وخرجوا إلى عسقلان وأقاموا بها.

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم، وعبادهم وزهادهم، ممن فارق أهله، ووطنه وجاور بذلك الموضع الشريف . وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة، زنة كل قنديل (ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورا من فضة وزنه) [٦] أربعون رطلا بالرطل الشامي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا من الفضة، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا. وغنموا ما لايقع عليه الإحصاء وورد إلى بغداد القاضي سعد الهروي في شهر رمضان، ومعه جماعة، يستنفرون الناس، وأوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون، وصدع القلوب واستغاثوا بالجامع يوم الجمعة، وبكوا، وذكروا ما نزل بالمسلمين من البلاء، وما حل بهم من المصيبة. فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وغيرهما، إلى السلطان بسبب ذلك، فاتفق ما ذكرناه من الاختلاف الذي وقع بين الملوك السلجقية، فتمكن الفرنج من البلاد.

قال: ولما اتصل خبر هذه الحادثة العظيمة بالأفضل أمير الجيوش جمع العساكر وخرج إليهم، فقاتلهم في شهر رمضان من السنة. ثم كبسه الفرنج هو ومن معه، وهم على غير تعبئة، فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.وحاصر الفرنج عسقلان، فصالحهم أهلها على عشرة الآف دينار، وقيل عشرين ألف دينار، فعادوا إلى القدس.

قال: وكان الذي ملك البيت المقدس من الفرنج كندفري

ذكر ظفر المسلمين بالفرنج

قال المؤرخ : وفي ذي القعدة سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة لقي كمشتكين بن الدانشمند طايلو، وهو صاحب ملطية وسيواس، بيمند الفرنجي بالقرب من ملطية، وكان صاحبها قد كاتبه واستقدمه عليه،

فورد عليه في خمسة آلاف، فلقيهم ابن الدانشمند، وقاتلهم، فهزم بيمند وأسر.

ثم وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج، فأرادوا خلاص بيمند، فأتوا إلى قلعة أنكورية فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا إلى قلعة أخرى فحصروها وفيها إسماعيل بن الدانشمند ، فجمع الدانشمند جمعا كثيرا، ولقي الفرنج، وجعل له كمينا، فقاتلهم وخرج عليهم الكمين فقتلهم.وكانوا ثلاثمائة ألف لم يفلت منهم غير ثلاثة آلاف هربوا..

وسار ابن الدانشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها.

قال ابن الأثيرالجزري: وكانت هذه الوقائع في شهور قريبة.

قال: ولم يزل بيمند في أسره إلى سنة خمس وتسعين، فأخذ منه مائة ألف دينار وأطلقه

ذكر قتل كندفري وملك أخيه بغدوين وما استولى عليه الفرنج من البلاد وهي : حيفا، وأرسوف، وقيسارية، والرها، وسروج

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة سار كندفري صاحب البيت المقدس إلى عكا، فحاصرها، فأصابه سهم فقتله، وكان قد عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكري، فلما قتل كندفري سار أخوه بغدوين إلى البيت المقدس في خمسمائة فارس وراجل، فبلغ ذلك الملك شمس الملوك دقاق صاحب دمشق، فنهض إليه في عسكره ومعه الأمير جناح الدولة في جموعه فقاتله، فنصر على الفرنج.

وفي هذه السنة ملك الفرنج مدينة حيفا عنوة وهي على ساحل البحر بالقرب من عكا، وملكوا أرسوف بأمان وأخرجوا أهلها منها، وملكوا قيسارية بالسيف وقتلوا أهلها، وفيها ملك الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا الرها بمكاتبة من أهلها، لأن أكثر

أهلها أرمن،فلما كان الآن جمع الأمير سقمان بن أرتق جمعا عظيما من التركمان وزحف بهم إليهم، فلقوه وقاتلوه، فهزموه في شهر ربيع الأول. فلما تمت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سروج، فتسلموها، وقتلوا كثيرا من أهلها وسبوا حريمهم، ونهبوا أموالهم، ولم يسلم منهم إلا من انهزم

ذكر أخبار صنجيل الفرنجي وما كان منه في جروبه وحصار طرابلس والطوبان وملك أنطرطوس

وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة لقي صنجيل الملك قلج أرسلان صاحب قونية، وصنجيل في مائة ألف مقاتل وقلج في عدد يسير، واقتتلوا، فانهزم الفرنج وأسر كثير منهم، وفاز قلج بالظفر والغنيمة.ومضى صنجيل مهزوما في ثلاثمائة، فوصل إلى الشام، فأرسل فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس إلى الأمير جناح الدولة بحمص وإلى الملك دقاق بدمشق يقول: من الصواب معاجلة صنجيل إذ هو في العدد اليسير فخرج إليه جناح الدولة بنفسه وسير دقاق ألفي مقاتل، وأتتهم الأمداد من طرابلس، وصافوا صنجيل فأخرج مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق، وخمسين إلى عسكر حمص وبقي في خمسين

فأما عسكر حمص فانهزموا عند المشاهدة وتبعهم عسكر دمشق.

وأما عسكر طرابلس فإنهم قتلوا المائة الذين قاتلوهم، فحمل صنجيل في المائتين الباقيتين، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل ونازل طرابلس وحصرها.

وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصرها، هم وأهل السواد، لأن أكثرهم نصارى، فقاتل من بها أشد قتال، فقتل من الفرنج ثلاثمائة: ثم هادنهم ابن عمار على مال وخيل، فرحل صنجيل عنهم إلى مدينةأنطرطوس، وهي من أعمال طرابلس، فحصرها وفتحها، وقتل من بها من المسلمين.

ورحل إلى حصن الطوبان[٧]، ومقدمه ابن العريض، فقاتلهم فنصرعليهم وأسر فارسا من أكابر فرسانهم، فبذل فيه صنجيل عشرة آلاف دينار، وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك.

ذكر ملك الفرنج جبيل وعكا

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاذقية، فيها التجار والمقاتلة والحجاج وغيرهم،فاستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس، فحاصروها معه وضايقوها، فلم يروا فيها مطمعاً، فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل فحصروها وقاتلوا عليها قتالا شديدا،فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج طلبوا الأمان على تسليمها، فبذل لهم صنجيل الأمان، وتسلم البلد منهم،فلم يف لهم. وأخذ الفرنج أموالهم وعاقبوهم عليها بأنواع العذاب.ثم ساروا إلى عكا نجدة لبغدوين، صاحب القدس، على حصارها، فنازلوها وحصروها في البر والبحر، وعليها زهر الدولة الجيوشي، فقاتلهم أشد قتال. فلما عجز عن حفظ البلد فارقه، وملك الفرنج عكا بالسيف، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة. وساروا منها إلى دمشق ثم إلى مصر.

وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج حصن أفامية، وسرمين من أعمال حلب.

وفي سنة اثنتين وخمسمائةفتح السرداني عرقة، وذلك أنها كانت بيد غلام فخر الملك ابن عمار، وقد عصى على مولاه، فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة، فكاتب طغدكين صاحب دمشق أن يرسل إليه من يتسلم الحصن لعجزه عن حفظه،فبعث إليه طغدكين صاحبا له اسمه إسرائيل في ثلاثمائة، فتسلم الحصن، فلما نزل غلام ابن عمار رماه اسرائيل بسهم فقتله في الاختلاط، طمعا في المال الذي بعرقه لئلايطلع طغدكين عليه.

قال وأراد طغدكين أن أن يشحن الحصن بالعساكر والأقوات، فتوالت الأمطار مدة شهرين، فعجز عن ذلك. فلما انقطع المطر ركب في

أربعة آلاف فارس وجاءوا إلى عرقة، فتوجه إليه السرداني وهو يحاصر طرابلس ومعه ثلاثمائة فارس، فانهزم عسكر طغدكين عندما أشرفت الخيل من غير قتال، فأخذ السرداني أثقالهم وتسلم الحصن بأمان ، وقبض على إسرائيل، وقال لا أطلقه إلا بفلان وهو من أكابر الفرنج كان أسيرا ففودي به.

ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت

كان صنجيل لما ملك مدينة جبيل، كما ذكرنا، حصر طرابلس، فلما لم يتمكن منها وعجز عن الاستيلاء عليها بنى بالقرب منها حصنا وجعل تحته ربضا، وأقام يرصدها ينتظر فرصة، فخرج الملك أبو علي بن عمار، صاحب طرابلس، فأحرق ربضه، فوقف صنجيل على سقوفه المحترقة،ومعه جماعة من القمامصة والفرسان، فانخسف بهم. فمرض صنجيل عشرة أيام، ومات، وحمل إلى القدس فدفن هناك، وذلك في سنة تسع وتسعين وأربعمائة

ودامت الحرب على طرابلس خمس سنين، فسار الملك ابن عمار إلى بغداد يستنجد بالخليفة والسلطان على الفرنج، على ما ذكرناه، وعاد من بغداد في منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة وتوجه إلى جبلة فدخلها وأطاعه أهلها

وأما طرابلس فإن ابن عمار لما فارقها راسل أهلها الأفضل أمير الجيوش يلتمسون منه واليا يكون عندهم ومعه الميرة في البحر، فسير إليهم الأفضل شرف الدولة بن أبي الطيب واليا، ومعه الغلال وغيرها . فلما صار إليها قبض على جماعة من أهل ابن عمار واستولى على ما وجده من أمواله وذخائره

فلما كان في شعبان سنة ثلاث وخمسمائة وصل اسطول كبير من بلدالفرنج، مقدمه قمص كبير اسمه ريمند بن صنجيل[٨]، ومراكبه مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وليس ريمند هذا ابن صنجيل صاحب الحصن المقدم ذكره، فنزل على طرابلس وكان السرداني وهو ابن اخت

صنجيل محاصرا لها قبله، فجرت بينهما فتنة أدت إلى الشر والقتال فوصل تنكري صاحب أنطاكية إليها إعانة للسرداني، ووصل بغدوين صاحب البيت المقدس في عسكره، فأصلح بينهم، فنزل الفرنج بأجمعهم على طرابلس وضايقوها، وذلك في شعبان، وألصقوا أبراجهم بسورها؛ فلما شاهد الجند وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم، وذلت نفوسهم، وزادهم ضعفا، فتأخر الأسطول المصري عنهم بالميرة والنجدة ، وداوم الفرنج القتال والزحف إلى أن ملكوا البلد عنوة، وذلك يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، سنة ثلاث وخمسمائة ، ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والذرية، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يوصف.

وكانت طرابلس من أعظم البلاد، وأهلها من أكثر الناس أموالا.

وسلم الوالي الذي كان بها وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها، فوصلوا إلى دمشق، وعاقب الفرنج أهل طرابلس بأنواع العقوبات، وأخذت دفائنهم وذخائرهم .

ووصل الأسطول المصري بالرجال والغلال وغيرها، ما يكفيهم سنة، وكان وصول الأسطول إليها بعد أن ملكت بثمانية أيام، ففرق ما في الأسطول على الجهات المجاورة لها: صور وصيدا وبيروت

ذكر ملك الفرنج جبلة وبلنياس

قال: ولما فرغ الفرنج من طرابلس سار تنكري صاحب أنطاكية إلى بلنياس، فافتتحها وأمن أهلها، ونزل على مدينة جبلة وبها فخر الملك ابن عمار، وكان القوت قد قل بها، فقاتل من بها إلى أن ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة بالأمان.

وخرج فخر الملك ابن عمار وقصد شيزر، فأكرمه صاحبها الأمير سلطان بن على بن منقذ الكناني. ثم سار إلى دمشق فأكرمه طغدكين

صاحبها . وأجزل له في العطية، وأقطعه أعمال الزبداني، وذلك في المحرم سنة أربع وخمسمائة

ذكر ملكهم مدينة صيدا

وفي جمادى الأولى سنة أربع وخمسمائة ملك الفرنج مدينة صيدا، وكانت من جملة ما هو بيد طغدكين صاحب دمشق. وذلك أنه وصل في البحر ستون مركباللفرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم، ليحج إلى القدس ويغزو المسلمين بزعمه، فاجتمع به بغدوين صاحب القدس وقرر معه الغزو فنزلوا على مدينة صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر، وضايقوها في البر والبحر، ومنعوا الأسطول المصري من الوصول إليها، وكان بساحل مدينة صور، فعمل الفرنج برجا من الخشب وأحكموه، وجعلوا عليه ما يمنع النار والحجارةعنه، وزحفوا به. فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج وطلبوا الأمان، فأمنوهم على نفوسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم، ومن أراد المقام بها عندهم أمنوه، ومن أراد المسير عنهم لا يمنعوه، وحلفوا لهم على ذلك فخرج الوالي وجماعة كثيرة معه تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما.

ورحل بغدوين عنها إلى القدس، ثم عاد إليها بعد مدة يسيرة يقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار، فاستغرق أموالهم وأفقرهم.

ذكر استيلائهم على حصن الأثارب وحصن زردنا

وفي سنة أربع وخمسمائة جمع صاحب أنطاكية الفارس والراجل، وسار إلى حصن الأثارب، وهو على ثلاث فراسخ من حلب، فحصره ومنع الميرة عمن فيه، فضاق الأمر عليهم، فنقب المسلمون من القلعةنقبا وقصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية فيقتلوه، فلما فعلوا

ذلك استأمن إليه صبي أرمني فعرفه الحال، فاحتاط لنفسه واحترز، وجد في قتالهم حتى ملك الحصن عنوة، وقتل من أهله ألفي رجل وسبى.

ثم سار الى حصن زردنا فحصره وفتحه، وفعل بأهله مثل ذلك. فلما سمع بذلك أهل منبج فارقوها خوفا من الفرنج، وكذلك أهل بالس، فطلب أهل الشام الهدنة، فامتنع الفرنج ثم أجابوا، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار، وخيول وثياب، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار،وصالحهم علي الكردي صاحب حماةعلى ألفي دينار. وكانت عدة الهدنة إلى إدراك المغل وحصاده. ثم جاءت العساكر من العراق ولم يبلغوا غرضا.

ذكر حصر مدينة صور وفتحها

كان استيلاء الفرنج، خذلهم الله تعالى، على مدينة صور في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة، وذلك أن الفرنج في هذه السنة اجتمعوا مع بغدوين صاحب القدس على حصارها، وكانت إذ ذاك بيد نواب الآمر بأحكام الله وبها من قبله عز الملك الأعز، فحصروها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة، وعملوا ثلاثة أبراج من الخشب علو البرج سبعون ذراعا في كل برج ألف رجل، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحد الأبراج بسور صور، فجمع عز الملك أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج، فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن إحراقها، وأخذ ألف رجل بالسلاح التام، ومع كل رجل حزمة حطب، فقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البرج الملتصق بالسور وألقوا الحطب من جهاته، وأشعلوا فيه النار. ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في الأبراج باطفاء النار، فرماهم بجرار مملوءة بالعذرة كان قد أعدها لهم فلما سقطت عليهم اشتغلوا بما نالهم من الرائحة الكرهة، فتمكنت النار من البرج وأحرق المسلمون البرجين أيضا.

وكاتب عز الملك طغدكين، صاحب دمشق، فأنجده بالرجال، وأرسل أصحابه للإغارة على بلاد الفرنج، فرجعوا من حصار مدينة صور في شوال من السنة.

ثم عادوا في سنة ست وخمسمائة إلى الحصار، وضايقوا البلد، فأرسل أهل صور إلى طغدكين صاحب دمشق يطلبون منه أن يرسل إليهم من جهته من يتولى أمرهم ويحميهم، وتكون البلد له. فسير إليهم عسكرا، وجعل عندهم واليا اسمه مسعود، وكان شهما شجاعا عارفا بالحرب ومكايدها،وأمده بالعساكر والميرة، فطابت قلوب أهل البلد. ولم يقطع خطبة الآمر بأحكام الله ولا غير سكته، وكتب إلى الأفضل أمير الجيوش يعرفه ما عمل ويقول: متى وصل من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها إليه، وطلب منهم ألا ينقطع الأسطول عنها بالرجال والميرة، فأجابه الأفضل إلى ذلك، وشكره على ما فعل، وجهز اسطولا إليها، فاستقامت أحوال أهلها.

ولم يزل كذلك إلى سنةست عشرة وخمسمائة، بعد قتل الأفضل أمير الجيوش، وذلك أن المأمون ابن البطائحي لما ولي إمرة الجيوش بعد قتل الأفضل سير إلى صور أسطولا على العادة، وأمر المقدم عليه أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود، الوالي من قبل طغدكين، ويقبض عليه، ويتسلم البلد منه، وكان سبب ذلك أن أهل صور شكوا منه إلى الآمر بأحكام الله، فلما وصل الأسطول وجاء الأمير مسعود ليسلم على المقدم قبض المقدم عليه واعتقله، وحمله إلى الآمر، فأكرمه وأعاده إلى صاحبه بدمشق. واستولى مقدم الأسطول على مدينة صور، وراسل الأمير طغدكين بالخدمة، واعتذر إليه، فقبل عذره، ووعده المساعدة.

فلما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها، وشرعوا في الجمع، واتصل خبرهم بواليها ، فعلم أنه لاقوة له ولا طاقة بهم، لقلة من بها من الجند والميرة، وأرسل إلى الآمر بذلك، فرأى أن يرد ولاية صور إلى طغدكين، فأرسل إليه بذلك، فملكها ورتب بها الجند وغيرهم.

وسار الفرنج إلى صور، ونازلوها في شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة، وضيقوا عليها ولازموا القتال، فقلت الأقوات، وسئم من بها القتال، وضعفت نفوسهم. وسار طغدكين إلى بانياس ليقرب منهم ويذب عن

البلـد، وأرسـل إلى الآمـر يستنجـده، فلـم ينجـده، وأشرف أهلهـا على الهلاك.فحينئـذ راسـل طغـدكين الفـرنـج على أن يسلـم إليهـم البلـد، ويمكنوا من بها مـن الجند والرعية من الخروج بما قدروا عليـه من أموالهم وغيرها، فاستقرت القاعدة على ذلك، وفتحـت أبواب البلد، وفارقه أهله، وحملوا مـا أطاقـوا وتفرقـوا في البلاد، ولم يتعـرض الفرنـج إليهم ، وملـك الفرنج البلـد في التاريخ الذي قـدمناه، ولم يبق بصور إلا ضعيـف عاجز عن الحركة.

وفي سنة ثلاث وعشريـن وخمسمائة ملك الفرنج حصن القـدموس من المسلمين، وملكوا بانيـاس بمراسلة إسماعيل الإسماعيلي، ورغبتـه في ذلك وانضمامه إلى الفـرنج، على ما قـدمنا ذكـره في أخبار تاج الملـوك طغدكين صاحب دمشق.

هذا ما استـولى عليه الفرنج مـن البلاد الإسلامية . فلنـرجع إلى أخبار الدولة العبيدية.

ذكر وفاة المستعلي بالله

كانـت وفاته في يـوم الثلاثاء لثـلاث عشرة بقيت من صفـر سنة خمس وتسعين وأربعمائة

ومولده لعشر بقين مـن المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة، وكـان عمره ثمانيا وعشرين سنة وثمانية وعشرين يوما

ومدة ولايته سبع سنين وشهرا واحدا وثمانية وعشرين يوما.

ولم تكن له سيرة تـذكر، فإن الأمر كان للأفضـل أمير الجيوش، لم يكن للمستعلي معه من الأمر إلا الاسم ، والرسم للأفضل

وكان للمستعلي مـن الأولاد أبو علي المنصـور، وجعفر، وعبـد الصمد. وزيره:الأفضل أمير الجيوش.

قضاته: أبو الحسن بن الكحال النابلسي، ثم أعاد ابن عبد الحاكم، ثم أبو طاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

ذكر بيعة الآمر بأحكام الله

هو أبو علي المنصور بن المستعلي بالله، وهو العاشر من ملوك الدولة العبيدية، والسابع من ملوك الديار المصرية منهم.

قال المؤرخ: لما مات المستعلي بالله أجلس الأفضل أمير الجيوش ولده أبا علي هذا على سرير الخلافة، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وبايع له الناس ولقبه بالآمر بأحكام الله، وله من العمر خمس سنين وشهر وأحد وأيام.

قال: ودبر الأفضل الأمر على ما كان عليه في أيام أبيه المستعلي.

وفي سنة خمسمائة بنى الأفضل أمير الجيوش الدار المعروفة بدار الملك على شاطىء النيل بمصر، وكملت عمارتها في سنة إحدى وخمسمائة، وسكنها

ومدحه الشعراء .فممن مدحه أبو الفضل بن أمية المغربي من قصيدة جاء منها :

دار هي الفلك الأعلى، وأنت بها
شمس الضحى، وبنوك الأنجم الزهر

ودار الملك هذه هي دار الوكالة الآن، وكان موضعها أخصاص موقوفة على الأشراف، فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرباع السلطانية

ذكر انشاء ديوان التحقيق

وفي سنة إحدى وخمسمائة جدد ديوانا وسماه ديوان التحقيق ، واستخدم فيه أبا البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني، وبقي فيه إلى أن قتل في سنة ثمان وعشرين. واستمر هذا الديوان إلى أن انقرضت الدولة العبيدية وانقطع، ثم اعاده السلطان الملك الكامل بن الملك العادل في سنة أربع وعشرين، واستخدم فيه أبو كوجك اليهودي، ثم أبطل في سنة ست وعشرين وستمائة فلم يعد، واستخدم في أيام السلطان الملك المعز أيبك صفى الدين عبدالله بن علي المغربي في استيفاءمقابلة الدواوين، وهو نوع منه.

ذكر حل الاقطاعات وتحويل السنة

وفي سنة إحدى وخمسمائة كثرت شكاوى الأجناد وطائف العساكر المصرية بسبب إقطاعاتهم، وأنها خربت وقل ارتفاعها، وأنها لاتقوم ببعض كلفهم، وأن الاقطاعات التي بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع، فأحضر الأفضل محمد بن فاتك البطائحي، وهو وزيره واستاذ داره، واستشاره فيما يفعل في ذلك، فأشار بحل جميع الإقطاعات التي بيد الأمراء وغيرهم، وأن يجمع الأمراء والطوائف للمزايدة فيها، فاتفق الرأي على ذلك.

وأحضر الأمراء والأجناد في دار الوزارة، وتحدث معهم في ذلك، فقال الأمراء: لنا في إقطاعاتنا أملاك وبساتين ومعاصر وغيرها، فقال الأفضل: الأملاك لملاكها على حالها يتصرفون فيها بالبيع والإيجار.

ثم حل الإقطاعات ووقعت الزيادة فيها، وتميز لكل منهم إقطاع، وكتبت المناشيربذلك، ثم شكي إليه كثرةعبرة البلاد وأن متحصلها

لايفي بالعبرة وحصل لديوا ن السلطان ضياع ،مقورة عبرتها خمسون ألف دينا ر في كل سنه.

ونقلت السنة الشمسية الخراجية إلى الهلالية، وكانت سنة إحدى وخمسمائة الهلالية وسنة سبع وتسعين وأربعمائة الخراجية فنقلت إلى سنة إحدى وخمسمائة

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة أغار بغدوين ملك الفرنج على الفرما وقتل جميع من بها، وأحرق جامعها ومساجدها، وذلك بعد أن حاصرها أياما، والفرما كانت بلدة بين القصير والغرابي من منازل الرمل، وهي الآن خراب. وقصد بغدوين مصر فرحل عن الفرما، ورجع إلى البيت المقدس، وهو مثقل بالمرض، فهلك بموضع يقال له جور قبل وصوله إلى العريش. فشق الفرنج بطنه وألقوا مصارينه هناك، فهى ترجم إلى وقتنا هذا، ودخلوا بجثته، فدفنوها بقمامة بالبيت المقدس

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة رتب ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة، ونظر الحسبة وظلم وعسف، وهو الذي بنى المسجد بسوق الخيل المعروف: بالذخيرة، ومسجد «لاباالله» [١٠]، وسبب تسميته بذلك أنه كان يقبض الناس من الطريق ويعسفهم، فيقولون له: لا بالله، فيقيدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة، ولم يعمل فيه صانع إلا وهو مكره مقيد. فابتلى الله ذخيرة الملك بأمراض شديدة، ولما مات تجنب الناس الصلاة عليه وتشييعه.

ذكر نهب ثغر عيذاب

وفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة عمر الشريف أبو محمد قاسم بن أبي هاشم، أمير مكة، مراكب حربية وشحنها بالمقاتلة وسيرهم إلى عيذاب،

فنهبوا مراكب التجار وقتلوا جماعة منهم، فحضر من سلم من التجار إلى باب الأفضل، وشكوا ما حل بهم فأمر بعمارة حراريق يجهزها، ومنع الناس أن يحجوا في سنة أربع عشرة، وقطع الميرة عن الحجاز، فغلت الأسعار، وكان الأفضل قد كتب إلى الأشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم، فكتب الشريف إلى الأفضل يعتذر ، والتزم برد المال إلى أربابه، ومن قتل من التجار فماله لورثته، وأعاد الأموال في سنة خمس عشرة

ذكر مقتل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة، وقد ركب من دار الملك بمصر فقتل عند كرسي الجسر، قتله الباطنية. قيل بمواطأة من الآمر ، لأنه كان قد ضاق منه لتحكمه عليه ومنعه من شهواته، فقصد اغتياله إذا دخل عليه للسلام، فمنعه أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم، ابن عمه، وقال: إن هذا الأمر فيه من قبح الأحدوثة وسوء الشناعة ما لاتحمد عاقبته، لأن هذا الرجل ما عرف له ولا لأبيه إلا المودة في خدمة هذا البيت والذب عنه، وإن قتلناه لا غنية أن نولي منصبه لغيره، فيكون المتولى بعده على وجل واحتراس، وإنما الرأي أن ندبر عليه فدبر عليه حتى قتل. هذا أحد الأقوال في قتله.

قال: ولما وثب الباطنية عليه ضرب ثماني ضربات، لوقته، وحمل على أيدي مقدمي ركابه، والقائد الميمون محمد وأخوته لا يمكنون أحدا من الدنو منه، وهم يبشرون الناس بسلامته، حتى وضعوه على سريره وغطي، ونفذ المأمون أخاه حيدرة إلى الآمر يقول له: أدركني وتسلم ملكك لئلا أغلب عليه أنا وأنت، وأوصاه أن يهنيء من وجده بسلامةالأفضل، ففعل حيدرة ذلك، وهنأ حرم الأفضل وغيرهم. فعزم أولاده على إثارة

فتنة وأنهم يطلبون الأمر لأخيهم تاج المعالي، فأمر الآمر بحمل أولاد الأفضل إلى الاعتقال بخزانة البنود، فحملوا إليها، وبات الآمر بدار الملك.

قال: وكان الأفضل حسن الاعتقاد في مذهب السنة، جميل السيرة، مؤثرا للعدل، صائب الرأي والتدبير، حسن الهمة، كريم النفس، صادق الحديث.

ونال الناس بعد قتل الأفضل من الظلم والجور والعسف ما لا يعبر عنه.

فجاء الناس إلى باب الآمر واستغاثوا، ولعنوا الأفضل وسبوه أقبح سب، فخرج إليهم الخدم وقالوا: مولانا يسلم عليكم ويقول لكم: ما السبب في سب الأفضل وقد كان قد أحسن إليكم وعدل فيكم؟ فقالوا: إنه عدل وتصدق وحسنت آثاره، ففارقنا بلادنا حبا لأيامه، وأقمنا في بلده فحصل بعده هذا الجور، فهو السبب في خروجنا عن أوطاننا واستقرارنا ببلده

قال المؤرخ: لما قتل الأفضل أحضر الآمر وزيره الشيخ أبا الحسن علي الحلبي،والقائد أبا عبد الله محمدوسألهما عن الاموال، فقال القائد أما السر فأعلمه،وأما الظاهر،فالوزير يعلمه، وأخبراه بذخائره وأمواله، وأقام الآمر في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة، وغيرهما، أربعين يوما، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقلونه إلى القصور، فوجد له من الذخائر النفيسة ما لايحصى.

وذكر أن الذي وجد له من الأموال ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتان وخمسون دينار، وخمسون أردبا دراهم، وثلاثون راحلة من الذهب

العراقي المغزول برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير من الذهب، زنة كل مسمار مائتا مثقال، عليها العمائم المختلفة الألوان مغطاة بالمناديل المزركشة، وتسعمائة ثوب من الديباج الملون، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة جسده، ولعبة من العنبرعلى قدر جسده برسم ثيابه توضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها، وترك من الطيب والآلات والنحاس ما لايحصى.

وترك من الأبقار والجواميس والأغنام ما بلغ ضمان ألبانها ونتاجها أربعين ألف دينار في السنة. وكانت الدواةالتي يكتب منها مرصعة بالجواهر، فقوم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار، وخلف من ا لكتب خمسمائة ألف مجلد.

وحكى القاضي زكي الدين أبو زكريا يحيى بن علي الدمشقي في تاريخه عما خلفه الأفضل فقال: خلف جملة لم يسمع أحدا من الملوك والخلفاء في هذا الزمان جمع مثله ولاادخر مثل بعضه: وأن الآمر بأحكام الله شرع في حمل ما في دوره إلى القصر، فحمل على عدة كثيرة من الجمال والبغال، ونقل في شهرين وأيام

قال: وحكى الدينبلي التاجر الآمدي أن متولي الخزانة بالقصور ذكر له جملا مما حمل من موجوده في الدار، منها ستة آلاف ألف وأربعمائة دينار، ومن الورق ما قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق، ومن الآلات مثل أتوار واصطال وصحاف وشربات وأباريق وزبادي وقدور، وقطع من الفضة والذهب مختلفة الأجناس ما لايحصى كثرة، وبراني[١١] صيني كبار، وعيبات مملوءة جواهر، ومن أصناف الديباج والعتابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن مملوءة صناديق كلها من الدبيقي والشرب استعمال تنيس ودمياط، وخزانة الطيب مملوءة أسفاطا، وعود، وبراني مسك ونوافج،

وبراني زجاج مملوءة من الكافور القنصوري، غير مصاعد، ومن العنبر ما لايحصى كثرة.

وكان له مجلس يجلس فيه للشراب فيه صور ثماني جواري متقابلات، أربع منهن بيض من كافور وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلي وأحسن الجواهر، فكان إذا دخل باب المجلس نكسن رؤوسهن خدمة له، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات. ووجد له من المقاطع والستور، والديباج والدبيقي الحريري، والذهب، والفرش، والمخاد والمساند على اختلاف أجناسها، أربع حجر كل حجرة مملوءة من ذلك، وعدة صناديق مملوءة حقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال. ووجد له ثمانمائة جارية منهن حظايا خمس وستون، لكل جارية حجرة وخزانة مملوءة من الكساوى، والآلات الديباج والذهب والفضة ، ومن كل صنف.

قال الخازن: هذا ما حضرني حفظه مما في داره، وأما ما كان في مخازنه وتحت يد عماله وجباته وضمان النواحي فما لايحصى كثرة، من الأموال والغلال والحبوب والقطن والكتان، والشمع والحديد، والأخشاب وغير ذلك وكل نوع منه ما يجاوز الحد والاحصاء، ولايمكن تحرير حسابه إلا في المدة الطويلة

وأما العدد والخيول والسلاح والبقر والغنم، فقال الخازن لم تتحرر لكثرتها، وقال حمل من داره أربعة آلاف بساط، وستون حمل طنافس، وخمسمائة قطعة بلور كبار وصغار، وخمسمائة قطعة محكم، وألف عدل من متاع اليمن والاسكندرية والغرب، وسبعة آلاف مركب من أصنافها.

وأما ما عمره من المساجد فمنها: جامع الفيلة، وقيل إنه لم يكمله .

وحكى الشريف محمد بن أسعد الجواني في كتابه المترجم بالنقط في ذكر الخطط أن جامع الفيلة بناه الأفضل في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، وأن الأفضل مات ولم يكمله فكمله المأمون في وزارته، وولى خطا بته الشريف أمين الدولة أبا جعفر، محمد بن محمد بن هبة الله الحسيني الطرابلسي النسابة وأمر أن يحضر جميع وجوه الدولة والرؤساء في أول جمعة، فحضروا. فلما رقا الشريف المنبر قال: «الحمد لله» ، وارتج عليه ودهش، فلم يزل يكررها إلى أن أضجر الناس، وقد هم ، ومضى إلى داره، فاعتل ومات في سنة سبع عشرة وخمسمائة، ومنها المسجد الذي على جبل المقطم، وبنى في جامع عمرو بن العاص المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيدية والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة ، وغير ذلك .وهو الذي أنشأ التاج والخمسة وجوه.

قال ناظم سيرة المأمون: وعمل الأفضل خيمة سماها خيمة الفرح، ثم سميت بالقاتول لأنها كانت إذا نصبت يموت تحتها من الفراشين رجل أو رجلان اشتملت على ألف ألف ذراع (وأربعمائة ألف ذراع) وكان ارتفاعها خمسين ذراعا بذراع العمل، أنفق عليها عشرة آلاف ألف دينار

ومدحه جماعة من الشعراء وذكروا هذه الخيمة، منهم أبو جعفر محمد ابن هبة الله الطرابلسي بقصيدته التي يقول فيها:

ضربت خيمة عز في مقر علا
أوفت على عذبات الطود ذي القنن
جاءت مدى الطرف، حتى خلت ذروتها
تأوي من الفلك الأعلى إلى سكن
أقطارها ملئت من منظر عجب
يهدي إليك ذكاء الصانع الفطن
فمن رياض سقاها القطر صيبه
فما بها ظمأ يوما إلى المزن

وجـــامـــح في عنـــان لايجاذبـــه
وطـــائر غير صـــداح على فنـــن
وأرقـــم لايمـــج السـم ريقتـــه
وضيغـم ليـس بـالعـادي ولا الـوهـن
ومـائلين صفـوفـا في جـوانبهـا
لـو يستطيعـون خـر الجمـع للـذقـن
زينـت بـأروع لاتحصـى فضـائلـه
مـاض مـن المجـد والعليـاء في سنـن
وأطلـع الـدسـت فيهـا شمـس مملكـة
يـرى التـأمـل فضـل العين والأذن
وعـد على السعـد أن النصر يضربها
بـالصين، بعـد فتـوح الهنـد واليمـن

وقال أبو علي حسن بن زيد الأنصاري، الكاتب بديوان المكاتبات، يصفها ويمدح الأفضل:

مهـلا فقـد قصرت عـن شـأوك الأمـم
وأبـدت العجـز منهـا هـذه الهمـم
أخيمـة مـا نصبـت اليـوم، أم فلـك
ويقظـة مـا نـراه منـك أم حلـم؟
مـا كـان يخطـر في الأفكـار قبلـك أن
تسمـو على أفـق النهـى الخيـم
حتـى أتيـت بها شماء شـاهقـة
في مـارن الـدهـر مـن تيـه بها شمـم
إن الـدليـل على تكـوينهـا فلكـا
أن احتـوتـك، وأنـت النـاس كلهـم

ومنها:

لـديـك جيـش، وجيـش في جـوانبهـا
مصـور وكـلا الجيشين مـزدحـم

إذا الصبا حركتها ماج موكبها
فمقدم منهم فيها ومنهزم
أخيلها خيلك اللاتي تغير بها
فليس تنتزع عنها الحزم واللجم

علمت أبطالها أن يقدموا أبدا
فكلهم لغبار الحرب مقتحم
أمنتهم أن يخافوا سطوة لردى
فقد تسالمت الأسياف والقمم
كأنها جنة، والقاطنون بها
لا يستطيل على أعمارهم هرم
علت . فخلنا لها سرا تحدثه
للفرقدين وفي سمعيهما صمم
إن أنبتت أرضها زهرا فلا عجب
وقد همت فوقها من كفك الديم

قال المؤرخ: وكان للأفضل شعر حسن، فمن قوله في غلامه المعالي:
أقضيب يميس، أم هو قد
أم شقيق يلوح أم هو خد
أنا مثل الهلال سقما عليه
وهو كالبدر حين وافاه سعد

وكانت ولاية الأفضل سبعا وعشرين سنة وخمسة أشهر.

ذكر تفويض أمور الدولة وإمرة الجيوش للمأمون البطائحي

قال المؤرخ: وفي الخامس من ذي الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة فوض الآمر بأحكام الله أمور الدولة وإمرة الجيوش للقائد أبي عبد الله محمد بن الأمير ثقة الدولة أبي شجاع فاتك بن الأمير منجد

الدولـة أبي الحسن مختار المستنصري المعروف بـابن البطائحي، وكـان قبل ذلـك عند الأفضـل أستـاذ داره، واستقرت نعـوتـه في سجله المقـروء على كافـة الأمراء والأجناد« بـالأجل المأمون، تـاج الخلافة، وجيه الملـك، فخر الصنائع، ذخر أمير المؤمنين». ثـم نعت بعد ذلك « بالأجـل المأمون، تاج الخلافة، عـز الإسلام، فخر الأنـام، نظام الدين والـدعاة». ثم نعـت بعد ذلك بنعوت الأفضـل وهي: « السيد الأجل المأمـون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين»

قال نـاظم سيرة المأمـون: ولما كان يـوم الثلاثـاء الثالـث عشر من ذي الحجة من السنـة، وهو يوم الهناء بعيد النحر، جلـس المأمون في داره وقت أذان الفجر، وجـاء الناس لخدمته للهنـاء على طبقاتهم في أربـاب البيوت والأقلام، ثـم الشعراء، وركـب الى القصور، فـأتى بـاب الذهـب، فوجـد المرتبـة المختصة بـالـوزارة قد هيئـت له في مـوضعهـا الجاري به العـادة، وأغلق الباب الذي عندها على الرسـم المعتاد لوزير السيف والقلم، وهذا الباب يعرف بباب السرداب، فلما شاهد المرتبـة توقف عن الجلوس عليها لأنه لم يـذكر له ذلـك قبل حضـوره، ثم ألجأته الضرورة، لأجـل حضور الأمراء،إلى الجلـوس عليها فجلس وأولاده الثلاثـة عن يمينه، وأخـواه عن يساره، والأمـراء المطوقون خاصـة قائمون بين يـديه، ومن عداهـم لايصل إلى هـذا الموضـع، فما كان بـأسرع مـن أن فتـح البـاب وخرج عـدة مـن الاستاذين المحنكين،وخرج إليه الأمير الثقة متـولي الرسالة وزمام القصور. فـوقـف أمام المرتبـة وقـال: أمير المؤمنين يـرد على السيد الأجـل المأمـون السـلام، فوقـف المأمـون عند ذلـك وقبـل الأرض، وجلـس في موضعـه، وتـأخر الأمير الثقـة حتى نـزل من على المصطبـة التي عليهـا المرتبةوقبـل الأرض ويد المأمـون، ودخل مـن فوره مـن الباب، وأغلـق الباب،على مـا كان عليه الأفضل.

قال: وكـان الأفضل يقـول: ما أزال أعد نفسي سلطـانا حتـى أجلس

على تلك المرتبة ويغلق الباب في وجهي، والدخان في أنفي، لأن الحمام كانت خلف الباب في السرداب

قال: ثم فتح الباب وعاد الثقة وأشار بالدخول إلى القصر، فدخل المأمون إلى المكان الذي هيء له، ودعي لمجلس الوزارة، وبقي الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح المقرئون. واستدعى المأمون فحضر بين يديه وسلم عليه أولاده وإخوته، ثم دخل الأمراء وسلموا على طبقاتهم، ثم الأشراف وديوان المكاتبات والانشاء، ثم قاضي القضاة ، والشهود، والداعي، ثم مقدموا الركاب ومتولي ديوان المملكة.

ثم دخل الأجناد من باب البحر، وهو الباب الذي يقابل المدرسة الكاملية الآن، ثم دخل والي القاهرة ووالي مصر وسلما ببياض أهل البلدين، ثم البطرك والنصارى والكتاب منهم، وكذلك رئيس اليهود.

ودخل الشعراء على طبقاتهم، وأنشد كل منهم ما سمحت به قريحته.

وكانت هذه عادة السلام على ملوك هذه الدولة، وإنما أوردنا ذلك ليعلم منه كيف كانت عادتهم

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة

ورد إلى الديار المصرية طائفة كثيرة من عرب لواته من جهة المغرب ، وانتهوا إلى الاسكندرية وأعمالها، وأفسدوا فسادا متحكما، فندب المأمون إليهم أخاه نظام الملك حيدرة، الملقب بالمؤتمن، فقاتلهم وهزمهم ، وغنم أموالهم، وتوجه إلى الاسكندرية ودخلها ، فصادف مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وأسروا، فخرج إليهم، وحاربهم وهزمهم، فعادوا.

ذكر القبض على المأمون

قال: وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة في يوم السبت لأربع خلون من شهر رمضان قبض الآمر بأحكام الله على وزيره المأمون أبي عبد الله محمد وعلى أخوته ، وثلاثين نفرا من خواصه وأهله، واعتقله، ولم يزل في اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين ، فصلبه مع اخوته.

وقيل في سبب ذلك أن المأمون راسل الأمير جعفرا، أخا الآمر، وأغراه بقتل أخيه وأنه يقيمه مكانه في الخلافة، واستقرت القاعدة بينهما على ذلك، واتصل ذلك بالشيخ أبي الحسن علي بن أبي أسامة، متولي ديوان المكاتبات، وكان خصيصا بالآمر قريبا منه، وناله من المأمون أذى كثير، فاعلم الآمر بالحال. وكان المأمون كثير التطلع لأخبار الناس والبحث عن أحوالهم، وكثر الوشاة في أيامه.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل: كان ابتداء حال المأمون أن والده كان من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا فاتصل ببعض البنائين بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير، فدخل مع الحمالين الى دار الأفضل مرة بعد أخرى، فرآه الأفضل خفيفا رشيقا، حسن الحركة، حلو الكلام والحجةفسأل عنه، فقيل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفراشين. ثم تقدم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته، الى أن انتهى الى ما ذكرنا.

قال محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر : إن ابن الأثيروهم في وفاة والد المأمون، وأن والده مات في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، والمأمون إذ ذاك مدبر دولة الأفضل، وأكثر الناس ينكرون ما ذكره ابن الأثير.

وقال صاحب كتاب البستان في حوادث الزمان: إن المأمون كان يرش بين القصرين، وجده من غلمان المستنصر بالله. والله اعلم.

ذكر اخبار أبي نجاح بن متى النصراني الراهب وقتله

كان هذا الراهب من أهل أشموم طناح، وكان قد خدم ولي الدولة يحنا بن أبي الليث، ثم اتصل بالخليفة الآمر بعد القبض على المأمون، وبذل في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم، وتسلسل الأمر إلى أن عم البلاء منه جميع رؤساء الديار المصرية وقضاتها وكتابها وغيرهم، ولم يبق أحد إلا ناله منه مكروه من الضرب والنهب وأخذ المال، وارتفع شأنه عند الآمر حتى كان يعمل له ملابس مخصوصة به بدمياط وتنيس من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب، فكان يلبسها ، ويلبس من فوقها الغفافير الديباج، وكان يتطيب في كل يوم بعدة مثاقيل من المسك. وكان يركب الحمير بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويجلس في قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويستدعي الناس للمصادرة. فاستدعى في بعض الأيام رجلا يعرف بابن العرس وكان من أكابر العدول ذوي الهيئات والديانة، والناس يعظمونه ويبجلونه وأوقع به الاهانة والإخراق، فخرج من عنده ووقف في الجامع يوم الجمعة وقال: يا أهل مصر، انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه هذا النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة، فدخل جماعة على الآمر وخوفوه العاقبة، وعرفوه ما حل بالمسلمين منه فاستدعاه، وكان في المجلس رجل من الأشراف، فانشد الآمر أبياتا منها:

إن الذي شرفت من أجله
يزعم هذا أنه كاذب

فقال له الآمر: ما تقول يا راهب؟ فسكت. فأمر به فقتل، وكان الذي تولى قتله الأمير مقداد والي مصر، وصلبه على الجسر، ثم أنزل وربط على

خشبلة ورمي في بحر النيل، وخرجت الكتب إلى الأعمال البحرية أنه إذا ألقاه الماء إلى جهة أخرجوه عنها حتى ينتهي الى البحر المالح.

وإذا قتل هذا الراهب وجدوا له مقطعا فيه ثلاثمائة طراحة سامان محشوة، جددا، لم تستعمل، هذا من هذا النوع، خلا ما وجد من الذهب والفضة والأقمشة والديباج.

ذكر مقتل الآمر بأحكام الله وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، بجزيرة مصر بالقرب من المقياس، وثب عليه عشرة نفر من النزارية وقتلوه، فحمل في جل الى الجامع، ونقل في مركب عشاري، وأحدر الى اللؤلوة في الخليج، ثم حمل الى القصر، فتوفى بقية يومه. وقتل القوم الذين قتلوه وكان مولده في يوم الثلاثاء لليلة خلت من المحرم سنة تسعين وأربعمائة وقتل في يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم منه، فكان عمره أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر، وولايته تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف شهر، وكان محكوما عليه إلى أن قتل الأفضل وتولى المأمون فظهر أمره، وصار يتصرف (ويركب) في يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء، وإذا لم يركب في يوم منها ركب في غيره. ولم يستوزر بعد المأمون وزيرا للسيف والقلم، بل استبد بأموره وباشرها بنفسه.

وكان قبيح السيرة في رعيته، يظلمهم ويأخذ أموالهم ويغتصب أملاكهم، وسفك دمائهم، وارتكب المحذورات، واستحسن القبائح، ويكفي من سوء سيرته تمكينه الراهب من المسلمين، وقد تقدم خبره.

وولد للآمر في هذه السنة ولد سمي أبا القاسم الطيب وجعله ولي عهده، فأخفاه الحافظ.

وزراؤه : الأفضل، ثم المأمون.

قضاته: ابن ذكا النابلسي إلى أن رفع ابراهيم بن حمزة الشاهد الى الأفضل أمير الجيوش أنه أحدث في مجلس الحكم فعزله، وولى أبا الفضل نعمة ابن بشير الجليس النابلسي إلى أن استقال، فولى الرشيد أبا عبد الله محمد ابن قاسم الصقلي إلى أن توفي، فأعاد الجليس ثم صرفه، وولى أبا الفتح مسلم، فبقي إلى أن تولى المأمون فعزله ونفاه لما أخطأ في قراءته، وولى أبا الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسي إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فولى الآمر أبا عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني، فاستمر إلى أن قتل الآمر بأحكام الله.

ذكر بيعة الحافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، وهو الحادي عشر من ملوك الدولةالعبيدية، والثامن من ملوك الديار المصريةمنهم. بويع له بعد مقتل ابن عمه الآمر، في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، بولاية العهد إلى أن يستبرىء نساء الآمر، وهل فيهن من هي مشتملة على حمل أم لا.

ذكر قيام أحمد بن الأفضل الحافظ وما كان من أمر أحمد إلى أن قتل

قال المؤرخ: لما بويع الحافظ لدين الله ثار الجند الأفضلية وأخرجوا ابن مولاهم، أبا علي أحمد بن الأفضل ، الملقب بكتيفات، وولوه إمرة الجيوش، وذلك في يوم الخميس السادس من ذي القعدة منها، فحكم، واعتقل الحافظ صبيحة يوم بيعته، ودعا للإمام المنتظر، وقوي أمر ابن الأفضل.

وفي سنة خمس وعشرين رتب أحمد بن الأفضل في الأحكام أربعة قضاة: الشافعية، والمالكية، والإسماعيلية،والإمامية، يحكم كل قاضي بمقتضى مذهبه ويورث بمقتضاه، فكان قاضي الشافعية الفقيه سلطان[١٢] وقاضي المالكية اللبني[١٣] وقاضي الاسماعلية أبو الفضل[١٤] ابن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل[١٥]

وسار أحمد بن الأفضل سيرة جميلة بالنسبة إلى أيام الآمر، ورد على

الناس بعض مصادراتهم، وأظهر مذهب الإمامية الاثني عشرية، وأسقط من الأذان قولهم«حي على خير العمل»، وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر بدعاء اخترعه لنفسه وهو «السيد الأجل الأفضل، مالك أصحاب الدول، والمحامي عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين، الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بنصرته بماضي سيفه، وصائب رأيه وتدبيره، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش»واستمر أمره إلى يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة. فاتفق ركوبه في هذا اليوم إلى الميدان بالبستان الكبير ظاهر القاهرة، للعب بالأكرة على جاري عادته، فوثب عليه مملوك رومي وقيل بل من صبيان الخاص،فطعنه طعنة ألقاه بها عن فرسه، ونزل واحتز رأسه، ومضى به إلى القصر، وذلك بموافقة من الأجناد، فكانت مدة تغلبه على الأمر سنة واحدة وشهرين وثلاثة عشر يوما، ودفن بتربة أبيه خارج باب النصر.

ذكر بيعة الحافظ لدين الله الثانية

قال: ولما قتل أحمد بن الأفضل بويع الحافظ بالخلافة بيعة عامة، وظهر الحمل المنتظر بنتا، فانتقلت الخلافة إليه وأمر أن يدعى له على المنابر: اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره، وجعلته آية لمن يدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا، عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين

قال: ولما تم أمر الحافظ استوزر أبا الفتح يانس، وهو رومي من مماليك الأفضل، ولقبه بأمير الجيوش، فقتل الطائفة المعروفة بصبيان الخاص، ومن جملتهم قاتل أحمد بن الأفضل، وكان عظيم الهيبة، بعيد الغور، فخافه الحافظ وتخيل منه، وتخيل يانس أيضامن الحافظ،فدبر كل واحد منهما على صاحبه ، فسبق تدبير الحافظ فيه فسمه في ابريق استعمل الماء منه عند الطهارة فعولج وكاد أن يبرأ. فكلم الحافظ بعض الأطباء، فقال له الطبيب: إن رأى مولانا أمير المؤمنين أن يمضي إليه ويزوره ويهنئه بالعافية فإنه لابد أن ينهض إليك ويمشي،فإذا مشى لايكاد يعيش أبدا. فمضى إليه الحافظ فقام إليه وتلقاه، فمات في ليلته، وذلك في السادس والعشرين من ذي الحجة فكانت مدة وزارته تسعة أشهر.

ذكر الخلف بين ابنى الحافظ لدين الله

قال المؤرخ: وفي شعبان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة جرى بين أبي تراب حيدرة وحسن، ولدي الحافظ، حرب شديدة، وافترقت العساكر على فرقتين،وهما الريحانية والجيوشية، وكان بينهما وقعة في خامس شهر

رمضان، ووقع الحرب بينهما بين القصرين، وقتل من الطائفتين تقدير عشرة آلاف إنسان. وكان سبب ذلك أن الحافظ جعل ولده حيدرة ولي عهده من بعده، فلم يرض حسن بذلك ، فوقع الاختلاف والحرب بينهما. واستظهر حسن على أخيه حيدرة، فهرب حيدرة إلى أبيه، فأرسل الحافظ إلى ابنه حسن ليدخل إليه، فامتنع وضايق القصر، وطالبه بأخيه حيدرة، فتلافاه الحافظ وجعله ولي عهده من بعده. وتمكن حسن من الدولة والتصرف فيها بحسب رأيه، ولم يبق للحافظ معه حكم.

ذكر مقتل حسن بن الحافظ

كان مقتله في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وذلك أنه لما استقر في ولاية العهد والوزارة والتدبير واستبد بالأمر، قبض على جماعة من الأمراء وقتلهم، بسبب قيامهم مع أحمد بن الأفضل، وأقام غيرهم، فخافه من بقي من الأمراء العتق، وأجمعوا على خلع أبيه من الخلافة وولده حسن من الوزارة، فاجتمعوا بين القصرين ، وراسلوا الحافظ، وأعلموه بما أجمعوا عليه فاستعطفهم الحافظ واعتذر إليهم، وهرب حسن إلى أبيه، فقبض عليه وقيده، وذكر ذلك للأمراء، فقالوا: لابد من قتله، فسقاه أبوه سما فمات، وجعله على سرير، وأمره الأمراء بمشاهدته، فدخلوا عليه ورأوه فسكتوا. وقيل إن قيام الأمراء كان بتدبير الحافظ

ذكر وزارة بهرام الأرمني

وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإحدى عشرة ليلة خلت منه، استوزر الحافظ بهرام الأرمني النصراني، ونعته بسيف الإسلام تاج الملوك، وكان بهرام المذكور قد وصل الى الديار المصرية واجتمع بالحافظ، فرأى منه عقلا وافرا وإقداما في الحرب، وحسن تدبير.

وكان سبب وصوله من بلاده أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه من غيره، فعدل الأرمن عنه وولوا غيره، فغضب لذلك وخرج من تل باشر وقدم مصر، فعينه الحافظ للوزارة، واستشار بعض أهله وأكابر دولته فيه، فكلهم كره ذلك وأشار عليه ألا يفعل، وقالوا: إنه نصراني لا يرضاه المسلمون، وإن من شروط الوزارة أن الوزير يرقى المنبر مع الإمام في الأعياد ليزر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس، وأن القضاة هم نواب الوزراء، من زمن أمير الجيوش بدر الجمالي،ويذكرون في النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة عنهم إلى الآفاق وكتب الأنكحة. فقال الحافظ: إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا، وهو وزير السيف؟ وأما صعود المنبر فيستنيب عنه فيه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة الى ذلك. واستوزر والناس ينكرون ذلك عليه.

وقال بعض المؤرخين: إن بهرام كان والي الغربية يومئذ، وأنه سار منها مجدا الى أن وصل إلى القاهرة وحاصرها يوما واحدا ودخلها، فلما ولي الوزارة وثبتت بها قدمه سأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك. فأرسل إليهم وأحضرهم من تل باشر، فتواصلوا حتى كمل منهم ومن غيرهم من الأرمن تقدير ثلاثين ألف إنسان، فاستطالوا على المسلمين. وبنيت في أيامه كنائس كثيرة وديرة حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة، وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا الملة الإسلامية. وكثرت الشكايات فيه. وكان أخوه المعروف بالباساك، وإليه تنسب المنية [١٦] التي بالقرب من إطفيح[١٧] ، قد ولي الأعمال القوصية فجار فيها جورا عظيما واستباح الأموال، فعظم ذلك على الناس

ذكر خروج بهرام من الوزارة ووزارة رضوان بن الوخشي

قال: ولما ثقلت وطأة بهرام على الناس اجتمع الأمراء وكاتبوا رضوان ابن الوخشي، وذلك في صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وكان يومئذ

متولي الغـربية ولاه بهرام إيـاها إبعادا لـه، فلما أتته كتـب الأمراء نهض في طلب الـوزارة، ورقى المنبر، وخطب خطبـة بليغة حرض النـاس فيها على الجهاد، فـأجابـوه، وحشد العـربان وقـدم الى القاهـرة ، وكان الأمـراء قد كاتبوه وقـالوا: إذا وقع الوجـه في الوجه ارفع المصـاحف على الرماح فـإنا ننحـاز إليك، ففعـل ذلك، وخـرج بهرام إليـه لما قرب مـن القاهـرة، فلما عاين الأمـراء والجند المصاحف التحقوا جميعهم بـرضوان، وبقي بهرام في الأرمـن خاصـة. فراسـل الحافظ وقـال: أنا ألقـاهم بمـن معي؟ فخـاف الحافظ عاقبـة ذلك، فأمره أن يتوجـه الى قوص ويقيم عند أخيـه الباسَاك الى حين يدبر أمرا. فعـاد بهرام الى القاهرةوأخذ ما خف حملـه، وخرج من باب البرقية في حادي عشر جمادى الأولى، وتوجه الى الأعمال القوصية.

قال: ولما انفصـل عن القاهـرة أتت العوام منـازل الأرمن ، وكانـوا قد نزلـوا الحسينية وعمـروها دورا. ولما اتصـل بأهـل قوص انهزام بهرام ثـاروا بأخيـه الباساك وقتلـوه ومثلوا به، وربطـوا في رجليه كلبا ميتـا، ورموه على مـزبلة. فقـدم بهرام بعد ذلـك بيـومين، ومعه طـائفـة من أقـاربه، فـرأى البـاساك على هـذه الحال، فقتل جماعـة من أهـل قوص بـالسيف ونهبهـا وسار إلى أسـوان. ثم رجع ونـزل بالديـرة البيض، وهي مـن أعمال أخميم بالجانب الغربي.

قـال: ولما فارق بهرام القـاهـرة دخلهـا رضوان ووقـف بين القصريـن، وأستأذن الحافظ فيما يفعله، فأمره بالنـزول بدار الوزارة، فنزلها، وخلع عليه خلع الوزارة، ونعته بالأفضل. وندب رضـوان جماعة من العسكر مع أخيه ناصر الـدين، فتـوجهوا إلى بهرام ، فاستقـر الأمر بينهم أن يقيـم بالـديرة البيض، وعاد الجند الذين مع بهرام إلى مصر.

ودبر رضـوان الأمر أحسـن تدبير، وصـادر جماعة مـن أصحاب بهرام وشدد عليهم الطلب ، وقتلهم بالسيف.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

أحضرت من تنيس امرأة بغير يدين، وموضع يديها مثل الحلمتين، فجيء بها إلى مجلس الوزارة بين يدي رضوان، فعرفته أنها تعمل برجليها ما يعمله الناس باليدين من خط ورقم وغير ذلك، فأحضر لها دواة، فتناولت الأقلام برجلها اليسرى وتأملتها قلما قلما فلم ترض شيئا منها، فأخذت السكين وبرت لنفسها قلما وشقته وقطته، واستدعت ورقة فأمسكتها برجلها اليمنى، وكتبت باليسرى بأحسن خط ما تكتب النساء بأيديهن مثله، وحمدت الله في آخر الرقعة، وناولتها للوزير. فتناولها فوجدها قد سألته الزيادةفي راتبها، فزادها، وأعادها الى بلدها.

وفيها بنى رضوان المدرسة المعروفة به بالاسكندريةواستدعى الفقيه أبا طاهر بن عوف إلى حضرته وأسند إليه تدريسها.

ذكر خروج رضوان من الوزارة وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة أحضر الحافظ بهرام الأرمني من الصعيد، وأسكنه في القصور وأكرمه، فعظم ذلك على الأفضل رضوان، فشغب الحافظ عليه الجند، فقام بعضهم عليه، وجرت بينهم حرب بالقاهرة. وطلب رضوان أن يسكن مع الحافظ في القصور، فلم يمكنه، فتزايد الحال على الأفضل وضعفت قدرته عن لقاء العساكر، فهرب إلى الشام، وذلك في منتصف شوال منها، وقصد كمشتكين والي صرخد، فأقام عنده فأكرمه. ثم عاد الى مصرفي سلخ المحرم سنة أربع وثلاثين وقد جمع جمعا صالحا من الجند، فخرج إليه العسكر وحاربوه عند باب الفتوح، فمضى ونزل عند الرصد، ثم مضى الى الصعيد، فندب إليه الحافظ الأمير سيف الدولة أبا الفضل بن مصال بأمان،فسار

إليه وتلطف بـه، إلى أن أحضره الى القصر، في رابع شهر ربيع الآخـر من السنـة، فاعتقلـه في بعض قـاعات القصـور. فأقـام في الاعتقال إلى سنـة اثنتين وأربعين، فخرج مـن نقب نقبـه في القصر، وذلك في ليلـة الثلاثـاء لسبع بقين مـن ذي القعدة منها. وركـب وحوله جماعـة ممن كان يكـاتبه، وتوجه إلى الجيـزة، ولقي عسكر الحافظ وقاتلهـم عند جامع ابـن طولون، فهـزمهم . ودخـل القاهـرة، ونزل بـالجامـع الأقمر، وأغلـق الحافظ بـاب القصر في وجهـه، فـاستحضر رضوان أربـاب الـدولـة والدواويـن، وأمـر ديوان الجيـش بعرض الجنـد، فعرضهـم، وأخذ أمـوالا كثيرة خارجـة عن الحصر كانـت في الدواوين، وأنفق، وأرسـل إلى الحافظ في طلـب المال، فأرسـل إليه عشرين ألـف دينار. وأمر الحافظ مقـدمي السودان بـالهجوم على رضـوان وقتله، فهجمـوا عليـه، فهم بـالركـوب، فـأعجلوه عن ذلك، وضربـه بعضهم بسيـف فقتله. وقتـل معـه أخوه، وأحضرت رأسـاهما الى الحافظ. وسكنت الفتنـة، وأرسل الحافظ الرأس لزوجـة رضوان فلما وقع في حجرهـا قالت: هكـذا تكون الرجال. فلـم يكن في وقت رضـوان أشجع منه.

وكان مولده في سنة تسـع وأربعمائة. وأول ولاية وليها الأعمال القوصية والأعمال الإخميمية في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

ذكر وفاة بهرام الأرمني

كـانت وفـاتـه لست بقين مـن شهر ربيـع الآخـر سنة خمس وثـلاثين وخمسمائة بـالقصـور، وكـان الحافـظ قد أسكنـه بـدار بها ولم يمكنـه مـن التصرف، وكان يشـاوره في تدبير الـدولة والأمـور ويصدر عـن رأيه، فلما هلك حزن عليه حزنا شديدا، وأمر بغلق الدواوين ثلاثة أيام.

وأحضر الحافـظ بطرك الملكيـة بمصر، وأمره بتجهيـزه، فجهزه. وأخـرج وقت صلاة الظهـر في تابوت عليه الـديباج، وحوله جماعـة من النصارى

يبخرون باللبان والسندروس والعود، وخرج الناس كلهم مشاة ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان، ثم خرج الحافظ على بغلة خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر طيلسان، ولم تزل الناس مشاة والقسوس يعلنون بقراءة الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، وقيل بل إلى بستان الزهري في الكنيسة المستجدة ونزل الحافظ عن بغلته، وجلس على شفير القبر، وبكى بكاء كثيرا.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة طلع النيل حتى بلغ تسعة عشر ذراعا وأربع أصابع، ووصل الماء إلى الباب الجديد أول الشارع الأعظم بالقاهرة، وصار الناس يتوجهون من القاهرة إلى مصر من جهة المقابر، ولما وصل الماء إلى الباب أظهر الحافظ الحزن والإنقطاع، فدخل عليه بعض خواصه وسأله عن السبب، فأخرج له كتابا وقال له: انظر هذا السطر، فقرأه، فإذا فيه. إذا وصل الماء إلى الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد. وقال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أخوالنا وأحوال الدولة وما يأتي بعدها

ذكر وفاة الحافظ لدين الله وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ومولده في المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة، وقيل في المحرم سنة ثمان وستين. فكانت مدة عمره ستا وسبعين سنة وشهورا، ومدة ولايته منذ بويع البيعة العامة الثانية، بعد قتل أحمد بن الأفضل، ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

قال المؤرخ: وكان الحافظ موصوفا بالبطش والتيقظ، وكان شديد المفاتشة وهو الذي عمل طبل القولنج الذي كسره الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان هذا الطبل قد عمل من سبعة معادن والكواكب

السبعة في إشراقها. وكان خاصته أنه كلما ضرب به ضربة خرج الريح من مخرج الضارب.

قال بعض المؤرخين : إن الحافظ خطر بباله أن ينقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى القاهرة، وكانت المدينة إذ ذاك يخطب بها لبني العباس، لظهور ملوك الدولة السلجقية، فأرسل نحوا من أربعين رجلا من أهل النجدة والقدرة، فتوجهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدة، وتحيلوا بأن حفروا سربا من مكان بعيد ، وعملوا حساب الخروج في المكان المقصود. فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من أن ينقل من المكان الذي اختاره له، فيقال إن السرب انهار عليهم فهلكوا، وقيل بل سعي بهم فأهلكوا.

وكان للحافظ من الأولاد: أبو علي حسن ، هلك كما ذكرنا، وعبد الله، هلك في حياته أيضا، وأبو المنصور إسماعيل، وأبو الأمانة جبريل، ويوسف. ووزراءه: تقدم ذكرهم. ولما قتل رضوان بن الولخشي لم يستوزربعده أحدا، وإنما كانوا كتابا. فمن أشهر كتابه أبو علي حسن الأنصاري كان (القاضي) الفاضل يقول : لم يسمح الزمان بمثله.

ومن أشهر شعرائه الشريف أبو الحسن الأخفش المغربي ومن جملة شعره في قصيدة:

ذكر الدوح وشاطىء بردى
وحبابا فيه يحكي بردا
والصبا يمرح في أرجائه
وتحوك الريح منه زردا
ينثر الدر عليه فضة
وتذيب الشمس فيه عسجدا
ورشا ألم لم تكن ريقته
خمرة صافية ما عربدا

قضاته:لما غلب أحمد بن الأفضل على الآمر ، أبقى محمد بن هبة الله ابن ميسر القيسراني على القضاء، ثم صرفه الحافظ واستقضى أبا الفخر صالح بن عبد الله بن أبي رجاء، ثم قبض عليه الوزير يانس الرومي وقتله، فولى سراج الذين أبو الثريا نجم بن جعفر ، مضافا الى الدعوة، إلى أن قتل في ذي القعدة سنة ثمان وعشرين، فأعيد سناء الملك ابن ميسر، فأقام إلى أن قبض عليه في يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة إحدى وثلاثين، وسير إلى تنيس فقتل بها، وولي بعده القاضي الأعز أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عقيل، إلى أن توفي في شعبان سنة ثلاث وثلاثين. وأقام الناس بغير قاض ثلاثة أشهر، ثم ولي أبو الفضائل هبة الله بن عبد الوارث الأنصاري لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة منها. ثم جرت مفاوضة بينه وبين «النبيه» أبي الحسن علي بن «اسماعيل» ، قيل أدت إلى مصافغة خرج في أثنائها القاضي إلى القصر وهو مخرق الأثواب، وقد تحلقت عمامته في حلقه، فعظم على الحافظ خروجه على هذه الهيئة وغرمه مائتي دينار، واستناب أبا طاهر إسماعيل بن سلامة الأنصاري،فأقام في النيابة إلى مستهل المحرم سنة خمس وثلاثين، فوفر جاري القضاء، وهو أربعون دينارا في كل شهر، وخدم بجاري التقدمة في الدعوة، وهو ثلاثون دينارا، في الوظيفتين، فأجيب الى ذلك وأقام إلى أن صرف لسبع خلون من صفر سنة ثلاث وأربعين، وبقي على الدعوة. وولى القضاء أبو الفضائل يونس بن محمد ابن الحسن المقدسي إلى آخر المدة

ذكر بيعة الظافر بأعداء الله

هو أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله، وهو الثاني عشر من ملوك الدولة العبيدية، والتاسع من ملوك الديار المصرية منهم، بويع له بعد وفاة أبيه لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، واستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن

مصـال، ونعته بـالسيـد الأجل المفضـل أمير الجيـوش، وكان إذ ذاك مـن أكابر امراء الدولة.

وفي الرابع من شعبان من السنة اجتمـع السودان وجماعة من المفسدين بالبهنسانية، فخرج إليهم الوزير فحاربهم وهزمهم .

ذكر قيام العادل بن السلار ووزارته ومقتل ابن مصال

في هـذه السنـة ثـار الأمير المظفـر أبـو الحسـن علي بـن السـلار والي الإسكنـدرية وخـرج وحشـد وتقـدم بمن معـه، ودخـل القـاهرة في يـوم الأربعاء سابـع شعبان، ووقف على باب القصر، وراسل الظافـر والمدبر له من النساء، فراجعـت في ذلك وفاء لابن مصال، ثم أجيـب إلى ما سأله. وفتح بـاب القصر، وخلع على المظفـر خلع الـوزارة ولقب بـالعادل، فلما اتصل ذلك بـابن مصال جمع عربان البـلاد، ووافقه بدر الديـن بن رافع مقدم العربـان بتلك البلاد، وقصد ابـن السلار فندب إليه ربيبـه عباس ابن يحيى بن تميم بن المعز بن بـاديس بعسكر معه، فعسكر ببركة الحبش، فنـدب ابـن مصـال لحربه الأمير الماجـد فجـد في السير وكبـس عسكـر عباس، فـأثخنهم جراحـا وقتلا، فانهزم عبـاس وأجـمع ابن مصـال رأيه على قصد بلاد الصعيـد، فعاجله ابن السـلار وأمد ربيبه بالعسـاكر وأمره بمعاجلته قبل الجمع، فـأدركه بالقرب من دلاص[١٨] . والتقوا بينها وبين مهد، وهـي قريـة هناك، واقتتلوا، فـانجلت الحرب عـن قتل ابـن مصال وبدر بـن رافع. وكـانت هـذه الوقعـة في يوم الأحـد تاسـع عشر شوال. وحمل رأس ابـن مصال إلى القـاهـرة، وطيـف به، وخلـع على العـادل في ذلك اليوم.

وفي السادس والعشرين من شهر رمضان أغلـق العادل أبواب القاهرة والقصـور، وقبض على صبيـان الخاص وقتلهـم، وكـانوا جمعـا كثيرا وهـم

أولاد الأجناد والأمـراء وعبيد الـدولة فكان الـرجل إذا تـوفي وخلف أولادا حملوا إلى حضرة الخلافة وأودعوا في أماكن مفردة لهم، ويؤخذ في تعليمهم الفروسيـة وغير ذلك، وتسموا صبيـان الخاص. وكان سبب ايقـاع العادل بهم أنـه بلغه أنهم تعـاقـدوا على قتله، فبـادر بهم، وقبـض عليهم، وقتـل أكثرهم، وجعل من بقي منهم في المراكز بالثغور

وفي يوم الجمعة لأربع خلون من شوال مـن السنةقتل العادل أبا المكرم الموفق محمـد بن معصـوم التنيسي ناظـر الدواويـن، وكان سبـب ذلك أن العـادل في مبـدأ أمره كـان مـن صبيـان الحجـر، وكان يتكـرر إلى الموفـق برسـائل ويكلمه بكلام غليـظ، فكرهه الموفق، ثـم كتب بعد ذلـك لابن السلار منشور بإقطـاع، فدخل به إليه، فتغافل عنـه وأهمل أمره، فقال له ابن السـلار: ما تسمـع؟ فقال: كلامـك ما يدخـل في إذني أصلا، فـأخذ ابن السلار منشورةوخـرج من حيث أتى، فلما ولي أمر الدولـة دخل عليه الموفق وسلـم عليه، فقال لـه: ما أظن كلامـي يدخل في اذنـك، فتلجلج بين يديـه وقال له: عفو السلطـان. فقال: قد استعملت العفـو من حين خروجـي من عندك، مـا أتيتك به، وأشـار لبعض خدمـه فأحضر مسمارا من حديد عظيم وضرب المسمار في أذنـه حتى نفذ من الأخرى، وحمل الى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة، وعلق عليها وقد مات

ذكر ما فعله الفرنج بالفرما وما جهزه العادل من الأسطول إلى بلادهم

وفي شهر رجب سنـة خمس وأربعين وخمسمائة أغار الفرنج على الفـرما فنهبوهـا وأحرقوهـا، وعادوا إلى بلادهـم، فجهز العادل المراكـب الحربية وشحنهـا بـالـرجـال وسفرهـا في شهـر ربيـع الأول سنـة سـت وأربعين، فمضت إلى يافـا وقاتلوا من بها في المراكب، واستولـوا على عدة كثيرة من مراكـب الفرنـج، وأحرقـوا ما عجـزوا عن أخـذه، وقتلوا خلقـا كثيرا، ثم

امتدوا إلى ثغر عكا وفعلوا فيه كفعلهم ببافا. وكذلك فعلوا بصيدا وبيروت وطرابلس، ونكوا في الفرنج نكاية عظيمة.ووجدوا طائفةكثيرة من حجاج الفرنج فقتلواعن آخرهم ، وكان جملة ما أنفق في هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار .

وفي سنة ست وأربعين قطعت جميع الكساوي المرتبة للأمراء والدواوين عن أربابها، وتوفرت.

ذكر مقتل العادل بن السلار وسلطنة ربيبه عباس

كان مقتله في السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وكان سبب ذلك أن العادة كانت جاريةبتجريد عسكر من مصر في كل سنة لحفظ عسقلان من الفرنج، وكان الفرنج قد حاصروهافي سنة سبع وأربعين، فلما كان في هذه السنة وقعت القرعة في البدل على عباس ربيب العادل،وهوابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، فجرده العادل بالعساكر، وقال له: هذا الثغر قد نازله الفرنج، ولاغنية أن تتوجه بالعساكر إليه لتدفعهم عنه، فخرج عباس من القاهرة ومعه جماعة من أكابر الأمراء، منهم أسامة بن منقذ، وكان خصيصا بعباس، فلما وصلا إلى بلبيس تذاكر عباس وأسامة القاهرة وطيب المقام بها وما خرجا إليه، وما يلقيانه من الشدائد ولقاء العدو، فتأوه عباس لذلك ولام عمه كونه جرده ، فقال له أسامة: لو أردت أنت كنت سلطان مصر، قال: وكيف الحيلة في ذلك؟ فقال: هذا ولدك نصر، بينه وبين الظافر مودة عظيمة، فأرسله إليه وخاطبه على لسانه أن تكون أنت السلطان مكان عمك، فهو يختارك ويكره العادل. فإن أجابك لذلك فاقتل عمك.

فجهز عباس ابنه وعرفه ما تقرر مع أسامة، فدخل إلى القاهرة على حين غفلة من العادل، واجتمع بالظافر وأعلمه الحال، فأجاب لما طلب.

ثم مضى نصر إلى عند جدته زوجة العادل، وأعلم العادل أن والده أعاده شفقة عليه من السفر، ومضى العادل الى مصر وجهز المراكب الحربية، وأنفق في رجالها ليلحق عباساً، وأقام طول نهاره في العرض والنفقة على رجالها، وعاد الى داره بالقاهرة وهو على غاية من التعب، فلما نام على فراشه احتز نصر بن عباس رأسه، ومضى به الى القصر، ودخل الى الظافر، وجهز الى أبيه، فركب لوقته، ودخل الى القاهرة صبيحة نهار الأحد الثاني عشر من المحرم، فوجد جماعة من الأتراك، كان العادل قد اصطنعهم لنفسه، قد ثاروا لذلك، فلاطفهم وطمنهم، فلم يطمئنوا ومضوا الى دمشق.

وكانت وزارة العادل ثلاث سنين ونصف سنة تقريباً، وكان من الاكراد الزرزارية. ولما قتل طيف برأسه في القاهرةومصر جميعاً، ونصب الظافر عباساً في السلطنة.

ذكر مقتل الظافر بأعداء الله وأخويه

كان مقتله في ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه خرج ليلاً متنكراً ومعه خادمان وجاء الى دار نصر بن عباس، وهي الدار المعروفة قديماً بدار جبر بن القاسم، ثم عرفت بسكن المأمون ابن البطائحي، وهي المدرسة المعروفة بالسيوفية في وقتنا هذا، المقابلة لحافر الدبابلة، بخط سوق السيوفيين بالقاهرة وهي لطائفة الفقهاء الحنفية. فلما جاء الظافر إليه قتله نصر بن عباس، وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل أحد الخادمين وهرب الآخر.

وكان سبب ذلك ان الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقد لما حسن لعباس قتل عمه العادل، وقصدوا قتل أسامة. فلما علم بذلك اجتمع بعباس وقال له: كيف تصبر على ما يقوله الناس في ولدك واتهامهم أن

الخليفة الظافر يفعل به ما يفعله مع النساء؟ فعظم ذلك على عباس، وقيل بل كان الظافر قد أنعم على نصر بن عباس بقليوب، فجاء نصر الى والده وأعلمه بذلك، فقال له أسامة: ما هي بمهرك غالية، فقال عباس لأسامة: كيف تكون الحيلة على هذا الأمر؟ فقال: إن الخليفة في كل وقت يأتي لولدك في هذه الدار خفية، فإذا أتاه فامره بقتله، فأوصى عباس ابنه بذلك، فلما جاءه قتله نصر.

قال: ولما كان صبيحة يوم قتله ركب عباس وولده على العادة وأتى الى القصر، فقال لبعض الخدم: أعلم مولانا ليجلس للاجتماع معه.فدخل وأعلم أهل القصر بما التمسه عباس من الاجتماع بالخليفة، فقالوا: قل له إنه خرج البارحة ولم يعد، فجاء الخادم إليه وأعلمه الخبر، فشدد عباس في طلب الظافر، ودخل الى القاعات ومعه أكابر الخدم، وقال: لابد من مولانا، فقيل له عند ذلك : أنت أعلم بحاله ، فأحضر أخويه: يوسف وجبريل، وقال لهما: أنتما قتلتما مولانا . فأنكرا ذلك وحلفا عليه الإيمان المغلظة. وأحضر القاضي وجماعة من الأعيان أهل الفتيا وداعي الدعاة وقال: قد صح عندي أن أخوي الظافر قتلاه، فأفتوه بقتلهما، فقتلا بين يديه وقيل إنه قتل معهما أبا البقاء بن حسن بن الحافظ، وصارم الدولة، مصلح، زمام القصر.

قال: وكان الظافر من أحسن خلق الله وجها، وكان مولده يوم الأحد، النصف من شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة،فكانت مدة عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوما ومدة ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة أيام.

ولده: أبو القاسم عيسى

وزراءه: تقدم ذكرهم

قضاته: أبـو الفضائل يونس، إلى أن صرفه العادل بـن السلار في سنة سبع وأربعين، وولى أبـا المعالي مجلي بـن نجا المخـزومي، فـأقام إلى آخـر الدولة.

ذكر بيعة الفائز بنصر الله

هو أبو القـاسم عيسى بن الظافـر بأعداء الله، وهو الثـالث عشر من ملوك الدولة العبيـدية، والعاشر من ملوك الديار المصرية منهـم. بويع له بعـد مقتـل والــده في يـوم الخميـس سلـخ المحــرم سنـة تسـع وأربعين وخمسمائة، وعمره خمس سنين، وذلك أنـه لما قتل الظافر استـدعى عباس ابنه أبـا القاسـم عيسى هذا وحملـه على كتفه ووقـف في القاعـة، وأمر أن تدخـل الأمراء فدخلـوا، فقال: هذا ولد مـولاكم وقد قتـل أبوه وعماه كما ترون، والـواجب الطـاعة لهذا الطفـل. فقالـوا بأجمعهـم: سمعنا وأطعنـا، وصاحوا صيحة عظيمة زل منها عقل الصبي واختل ، ثم سيره إلى أمه ، ولقب بالفائز فأقام يصرع في كل يوم

وانفرد عبـاس بالـوزارة وبتدبير الأمور، ولم يبـق على يده يـد، وظن أن الأمر استقام له.

ذكر خروج عباس من الوزارة وما آل اليه أمره

قال المؤرخ : لما قتل الظافر بأعـداء الله أكثر أهل القصر النواح عليه، وشرعـوا في أعمال الحيـلـة على عبـاس، ووافـق ذلـك نفـور الأمـراء منـه لإقدامه على القتـل، فاختلفت الكلمة عليـه، وهاجت العساكـر وتفرقت الفرق، ولبسـوا السلاح. فخـرج إليهم عبـاس في يوم الاثنين عـاشر شهر ربيع الأول من السنة، فقاتلهم وهزمهم، وقتل جماعة منهم.

فأرسلت عمـة الفائز أخت الظافر شعور أهـل القصر طي الكتب الى

الأمير طلائع بن رزيك، وهو اذ ذاك متولي الأعمال السيوطية، وقيل كان متولى منية بني خصيب[19] وسألو الانتصار لمولاه، فجمع العربان والأجناد ومقطعي البلاد، وسار الى القاهرة، فوصل إليها في تاسع عشر شهر ربيع الأول من السنة، وخرج الناس للقائه.

فاستشار عباس أسامة بن منقذ فأشار عليه باللحاق بالشام، فدخل الى القصر وأخذ في جمع تحفه وحمل أمواله، وسار هو وأسامة بن منقذ الى الشام على طريق أيلة. فأرسلت عمة الفائز الى الفرنج بعسقلان رسلاً على البريد تعلمهم الحال وتبذل لهم الأموال في الخروج على عباس وأخذ ما معه، فخرجوا إليه وقاتلوه، فتخاذل عنه اصحابه، ونهبوا ما معه فأسره الفرنج وحملوه الى عسقلان، ونجا أسامة الى دمشق.

وقيل إن الفرنج قتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ففداه الصالح بن رزيك، واحضره الى القاهرة وضرب عنقه.

ذكر وزارة الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك

قال المؤرخ: لما توجه عباس نحو الشام وافق ذلك قدوم طلائع بن رزيك، فخرج الأمراء والعساكر إليه، فمن الأمراء من شهر سلاحه وقاتله، ومنهم من التحق به، ثم انجلى الأمر بعد ساعة عن دخول طلائع إلى القاهرة والعساكر بين يديه. وشق القاهرة وهو لابس السواد، وأعلامه سود كذلك حزناً على الظافر، وشعور نساء القصر التي سيرت إليه على الرماح.

ونزل طلائع دار المأمون التي كان بها نصر بن عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل وأعلمهم بمكانه، فأخرج وغسل وكفن، وحمل في تابوت على أعناق الأمراء والأستاذين، وابن رزيك يمشي أمام التابوت، وأتوا به الى القصر فصلى عليه ابنه الفائز ودفن في تربتهم

بالقصر، وجلس الفائز في بقية النهار، وخلع على ابن رزيك بالموشح والعقد، وعلى ولده واخوته وحاشيته، وقرىء سجله بالوزارة، ونعت بالملك الصالح. وقبض على جماعة من الأمراء وقتلهم، في ثالث عشر شهر ربيع الأول من السنة..

وفي سنة خمسين وخمسمائة خرج الأمير تميم، متولي أخميم وأسيوط، على الصالح، وجمع جمعاً صالحاً، فأخرج إليه الصالح عسكراً، فالتقوا واقتتلوا، فقتل تميم في سابع عشر رجب.

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة انفسخت الهدنة بين الصالح بن رزيك والفرنج، فجهز الصالح الجيوش والسرايا الى بلاد الفرنج، فوصلت سرية الى عسقلان وغنمت وعادت سالمة، وجهز المراكب في البحر نحو بيروت، فأوقعت بمراكب الفرنج، وجهز سرية إلى جهة الشوبك فعاثوا في تلك النواحي، وعادوا سالمين بالغنائم والأسرى.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين قبض الصالح بن رزيك على الأمير ناصر الدولة ياقوت وأولاده واعتقلهم،وسبب ذلك أنه بلغه أنه كاتب أخت الظافر وقصد القيام على الصالح، وكان واليا عاملا على الأعمال القوصية، وهو بالقاهرة. ولم يزل في حبسه إلى أن توفي في شهر رجب سنة ثلاث وخمسين.

وفي سنة أربع وخمسين ثار على الصالح طرخان بن سليط بن ظريف، متولى الإسكندرية، وجمع جموعا من العربان وغيرها، وتقدم بها لحربه، فندب الصالح إليه الأمير عز الدين حسام بن فضة بعسكر، فالتقوا واقتتلوا، فهزم حسام جيوشه وظفر به، فاعتقله الصالح.

فلما كان في المحرم سنة خمس وخمسين ثار أخوه إسماعيل طلبا لثأره، وتلقب بالملك الهادي، فندب الصالح إليه الجيوش، فلما هجمت عليه

هربَ وأتى الجيزة، واستتر عند بعض العربان، فلما كان في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر هرب طرخان من الاعتقال هو والموكل به، فقبض عليه في السادس من الشهر وصلب على باب زويلة، ورمي بالنشاب، ثم مسك أخوه إسماعيل وصلب إلى جانبه بعد ضرب عنقه.

وفي سنة أربع وخمسين بنى الصالح حصنا من اللبن على مدينة بلبيس.

ذكر وفاة الفائز بنصر الله

كانت وفاته في ليلة الجمعةالسابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وقيل لليلة بقيت منه، وكان مولده في يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين، فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وأياما، ومدة ولايته ست سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما.

وزراؤه: الأفضل عباس بن يحيى بن تميم ، ثم الصالح طلائع بن رزيك.

قضاته : أبو المعالي مجلي بن نجا القرشي المخزومي،ثم صرف في أول وزارة الصالح، وأعيد أبو الفضائل يونس ثم صرف بالقاضي المفضل أبي القاسم هبة الله بن كامل.

ذكر بيعة العاضد لدين الله

هو أبو محمد عبد الله بن يوسف، بن الحافظ عبد المجيد، بن محمد، ابن المستنصر بالله أبي تميم معد، بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي، بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله نزار، بن المعز

لدين الله أبي تميم معد، بن المنصور بنصر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد، بن المهدي عبيد الله، وهو الرابع عشر من ملوك الدولة العبيدية، والحادي عشر من ملوك الديار المصرية منهم، وعليه انقرضت دولتهم، بويع له بعد وفاة الفائز بنصر الله في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وكان الملك الصالح طلائع قصد ان يبايع لشخص من أقارب العاضد، فقال له بعض أصحابه لايكن عباس أحزم منك حيث اختار صغيراً وترك من هو أسن منه، واستبد هو بالأمر، فعدل الصالح إلى العاضد، وبايع له وهو مراهق البلوغ، فكانت الخلافة للعاضد اسماً وللصالح رسماً.

ويوسف أبو العاضد هو أحد الأخوين اللذين قتلهما عباس بعد قتل الظافر.

وفي سنة ست وخمسين تزوج العاضد لدين الله بابنة الملك الصالح ابن رزيك، وكان العاضد توقف عن زواجها، فجبره الصالح على ذلك واعتقله الى ان تزوجها، وقصد بذلك أن يرزق العاضد منها ولداً فتحصل الخلافة والملك لبني رزيك، فجاء بخلاف ما قصد.

ذكر مقتل الملك الصالح طلائع بن رزيك وقيام ولده الملك العادل رزيك

كان مقتله في السابع عشر من شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة، وذلك انه ركب في هذا اليوم من دار الوزارة الى القصر، وجلس على مرتبته على عادته، فلما انقضى المجلس خرج، فبينما هو في دهاليز القصر وثب عليه جماعة فضربوه بالسكاكين عدة ضربات مهلكة. وكان سبب ذلك انه تحكم بالدولة لخلوها من الأمراء وصغر

سن العاضد، وكان قد فرق الأمراء وقتل بعضهم، فبعثت ست القصور عمة العاضد الأموال الى بعض الأمراء وأغرتهم به، فرتبوا ذلك. قال: ولما ضرب بالسكاكين ألقى ابن الزبد نفسه عليه وقاتل دونه ودخل بقية الأمراء فخلصوه فركب وبه بعض رمق. فلما رأته ست القصور وقد ركب أيقنت بالهلاك. قال: ولما استقر في منزله أرسل الى العاضد يعاتبه على ما كان منه، فحلف وأنكر أن يكون اطلع على هذا الأمر قبل وقوعه فأرسل إليه أن يبعث إليه عمته ست القصور، فتوقف العاضد عن ذلك، فأرسل الصالح الى ست القصور وأخرجها، فلما جاءت الى منزله أمر بخنقها، فخنقت بين يديه حتى ماتت، ومات الصالح في بقية ليلته.

قال: وكان الصالح شديد التشيع متغالياً في مذهب الإمامية، وكان يكره أهل السنة، وقيل إنه كان يسب الصحابة، رضي الله عنهم، وغضب على من لا يتنقصهم، وكان فيه بخل وحسد، ومنع في أيامه من بيع الغلال حتى غلت الأسعار، وكان كثير التطلع إلى ما في أيدي الناس، وصادر جماعة ليس لهم تعلق بالدولة، وأفنى الأمراء قتلاً واعتقالاً، وهو أول من خوطب بالملك في الديار المصرية.

وقال ابن الحباب في سيرته: إنه من ولد جبلة بن الأيهم الغساني، الذي ارتد عن الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال المؤرخ: وكان والد الصالح يسمى أسد رزيك، قدم مع أمير الجيوش بدر الجمالي.

قال: وكان الصالح مع ذلك حازماً ضابطاً لأمور دولته شاعراً اديباً.

قال القاضي الأرشد عمارة اليمني: دخلت على الصالح قبل وفاته بليلتين فناولني رقعة وقال: لقد عملت هذين البيتين في هذه الساعة، فإذا فيها:

نحـــن في غفلـــة ونـــوم وللمـــو
ت عيـــون يقظـــانـــة لاتنـــام
قـــدرحلنـــا الى الحمام سنينـــاً
ليـــت شعـــري متـــى يكـــون الحمام

فقلت هما صالحان، وقمت، فكان آخر عهدي به.

قال المؤرخ: وكان الصالح يقطع الليل أثلاثاً: فالثلث الأول مع أمراء دولته ووجوهها، والثلث الثاني مع جلسائه وندمائه وشعرائه، والثلث الثالث مع خواص نسائه، فكان يسمى ابو العمرين قالوا: وكذلك كان أمير الجيوش بدر الجمالي.

ومن شعر الصالح قوله:

يـــا مـــريـــض القلـــب بـــالـــذنـــ
ـــــب، متـــــى بـــــالعفـــــو تبرا
كلما جـــــددت يـــــومـــــاً
تـــوبـــة ضيعـــت أخـــرى
تشتهـــي الأجـــر ولاتفـــ
ـــعل مـــا يكســـب أجـــرا
أتـــرى بعـــد ذهـــاب الـــ
ـــعمر تستـــأنـــف عمـــرا

وقوله:

يـــا مـــاشيـــاً فـــوق الثـــرى
رفقـــاً، فســـوف تصير تحتـــه
إن قلـــت إني اعـــرف الـــ
ـــمولى القـــديـــر، فما عـــرفتـــه
إن كنـــت تعبـــد للمخـــا
فـــة والـــرجـــاء، فما عبـــدتـــه

والصالح هو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة المعروف به. وكان يقول: ندمت على ثلاثة: احدها انني بنيت الجامع بظاهر القاهرة وجعلته عوناً على باب زويلة فيضرها وقت الحصار، والاخرى توليتي شاور أعمال الصعيد، والله لاكان خراب دولة بني رزيك إلا على يديه، والثالثة أنني أنفقت في العساكر مائتي ألف دينار لأجل فتح بيت المقدس فتأخرت عن ذلك.

قال: ولما توفي دفن بدار الوزارة، ثم نقل إلى تربته التي بقرافة مصر.

قال: ولما حضرته الوفاة أحضر ولده رزيك، وأوصاه بوصايا كثيرة من جملتها أنه لا يعزل شاور، ولا يغير عليه مغيرا.

قال: ورثاه الشعراء بقصائد كثيرة، فيها ما قاله القاضي الأرشد عمارة اليمني:

أفي أهل ذا النادي عليه أسائله
فإني لما بي، ذاهب العقل ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه، ويخرس قائله

ومنها

وقد رابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن النفوس ثواكله
دعوني فما هذا أوان بكائه
سيأتيكم طل البكاء ووابله

وهي قصيدة طويلة أتى فيها بكل عجيب

قال:ولما مات الصالح خرجت الخلع من القصر لولده، وتلقب بالملك العادل مجد الإسلام

ذكر ظهور حسين بن نزار وقتله

وفي شهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمائة ورد حسين بن نزار، بن المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله من بلاد المغرب، وقد جمع جمعا عظيما، وتلقب بالمنتصر بالله، فخرج إليه الأمير عز الدين حسام ابن فضة بن رزيك على صورة الإنضمام إليه واللحاق به.

فلما صار عنده في خيمته غدر به وقتله، وحمل رأسه الى العاضد لدين الله.

وفيها بنى الأمير أبو الأشبال ضرغام البرج المعروف به بثغر الإسكندرية.

ذكر انقراض دولة بني رزيك

قد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيك، والد العادل، لما حضرته الوفاة أوصى ابنه العادل بوصايا كثيرة منها أنه لايعزل شاور من عمله ولا يحركه،وحذره من ذلك فلما كان في سنة سبع وخمسين اجتمع أقارب العادل وحسنوا له عزل شاور عن ولاية الصعيد، فذكرهم بوصية أبيه، فأصروا على عزله، وكان أشدهم في ذلك الأمير عز الدين حسام بن فضة، فألزم العادل إلى أن كتب كتابا يستدعي فيه شاور، ويأمره بالحضور إلى القاهرة، فكتب إليه شاور يستعطفه، ويظهر الطاعة والإدلال لسابق الخدمة لأبيه، ومناصحته في القيام بأمور الدولة، ثم قال فيه: إن كان القصد أن يلي الأعمال أحدكم فليرسل السلطان من يتسلمها غير عز الدين حسان، وإن كان غيركم من الأمراء فأنا أحق به

من سواكم، وقد سمعتم وصية أبيكم الصالح في حقي وما كرره في أمري واقرار أعمال الصعيد في يدي، وأرسل الكتاب إلى العادل، فوقف عليه، وأوقف عليه أقاربه وأهله، فقالوا: إن أبقيته طمع في البلاد ولايحمل إليك مالا، فقال العادل لهم: المصلحة تركه، فصمموا على عزله.

فأحضر العادل نصير الدين شيخ الدولة، وهو من أقاربه، وخلع عليه وولاه الأعمال القوصية، وكتب على يده إلى شاور بتسليم الأعمال إليه ووصوله إلى القاهرة، وتوجه نصير الدين، فلما وصل إلى إخميم أقام بها، وأرسل الكتاب إلى شاور طي كتابه، فلما وقف شاور على الكتاب أرسل إلى نصير الدين رسولا من جهته برسالة يقول له: إن بيني وبينك صحبة ولا تغتر بقول حسام، وارجع من حيث أتيت فهو خير لك، فرجع نصير الدين إلى القاهرة ولم يعاوده.

وأظهر شاور العصيان على الدولة، وأحضر جماعة من العربان من بني شيبان وغيرهم، وتوجه من الأعمال القوصية، وجعل طريقه على الواحات، وخرج منها إلى تروجه، وحشد العربان وأنفق فيهم الأموال، فوافقوه وانطاعوا له، فسار بهم نحو القاهرة. فندب العادل لحربه سيف الدين حسينا، صهره، ومعه جماعة من الأمراء، فراسلهم شاور واستمالهم، وبذل لهم الأموال الجمة، فمالوا إليه فلما التقوا انحازوا إلى جماعته وفارقوا مقدمهم، فانهزم حسين واستجار بظريف بن مكنون أمير جذام، وحمله في البحر، فمضى إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فمات هناك فندب إليه العادل عز الدين حساما، فانهزم منه أيضا.

فعند ذلك خرج العادل من القاهرة وتوجه إلى إطفيح، واستصحب أهله وذخائره، واستجار بسليمان بن الفيض اللخمي، وكان من أصحاب أبيه الصالح، فأنزله عنده، ومضى من وقته الى شاور وأخبره بخبر العادل، فندب إليه جماعة فأخذوه أسيراً هو ومن معه، ونهب

أصحاب ابن الفيض ما كان معه، وحمل إلي شاور فوصل إليه في ليلة الجمعة لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فأمر شاور باعتقاله، وقال لسليمان بن الفيض: لقد خبأك الصالح ذخيرة لولده حين استجار بك فأسلمته لي، وأنا اخبئك ذخيرة لولدي، ثم أمر به فشنق، وسميت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك اليوم، فهي تعرف الآن بهذا الاسم، فكانت أيام العادل سنة واحدة وثلاثة أشهر وأياماً. وجميع دولة بني رزيك تسع سنين تقريباً.

ذكر وزارة شاور الأولى وخروجه منها

كانت وزارته في يوم الأحد لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وذلك أنه لما انهزمت جيوش العادل بن رزيك وهرب هو إلى إطفيح خلت القاهرة منهم، فدخلها شاور، وحضر بين يدي الخليفة العاضد لدين الله، فخلع عليه خلع الوزارة، وسلطنه، ولقبه بأمير الجيوش، وأطلق شاور لأهل القصور الإطلاقات الكثيرة، وزادهم على مقرراتهم في أيام بني رزيك، واستدعى أموال بني رزيك وودائعهم، وبسط العدل أياماً، ثم شرع في ظلم الناس، وبسط يده ويد أولاده في الدولة، وقطع أرزاق الأمراء والجند واستخف بهم وبالعاضد، وعتا ولده الكامل وتجبر، ولبس رداء الكبر، وبذخ في الأموال، وصرفها في غير وجوه مصارفها. وساءت سيرته في الأمراء فأجمعوا على إخراج العادل من الاعتقال ونصبه في الوزارة، فاتصل ذلك بالكامل بن شاور، فأشار على أبيه بقتل العادل، فامتنع عن ذلك وقال: إنه أولاني خيراً فلا أقتله، فقتله الكامل من غير إذن أبيه، فعظم ذلك على شاور وعلى الأمراء، وغضب الأمراء لقتل العادل، وخرجوا على شاور، وافترقوا على فرقتين: فكان الضرغام وإخوته وأهله على فرقة، والظهير عز الدين مرتفع وعين الزمان وابن الزبد فرقة.

وكان الضرغام ومن معه أظهر الفرقتين، فخرج على شاور وحاربه، فجمع شاور أمواله وذخائره وغلمانه، وخرج ليلاً من القاهرة، فركب الضرغام في إثره فلحقه عند باب النصر، فقاتله طي بن شاور، فقتل طي، وأسر الكامل ومضى شاور الى الشام، وذلك في صبيحة يوم الجمعة، لثلاث بقين من شهر رمضان من السنة، فكانت وزارته ثمانية أشهر وخمسة أيام. والله أعلم.

ذكر وزارة الضرغام بن سوار

قال: ولما توجه شاور إلى الشام عاد الضرغام الى القصر، وأرسل إلى العاضد بما كان من أمر شاور، ومضى إلى داره بقية ليلته، وجاء إلى القصور من بكرة النهار، فاستدعاه العاضد لدين الله، وولاه الوزارة، ولقبه بالملك المنصور، واستخلف له الأمراء.

وأرسل علم الملك ابن النحاس الى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، يقبض على شاور.فأظهر نور الدين الإجابة لذلك، وباطنه بخلاف ذلك.

قال: ولما ولي الضرغام الوزارة خرج عليه الأمير علي بن الخواص، فظفر به الضرغام، فأشهره بالقاهرة ، وصلبه، وأحضر جماعة من الأمراء الى داره لدعوة عملها، فلما حضروا قبض عليهم وقتلهم.

ذكر قدوم شاور من الشام وعوده إلى الوزارة ثانياً وقتل الضرغام

كان قدومه في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وذلك انه لما توجه الى دمشق اجتمع بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وحسن له ان يجهز معه جيشاً يفتح به مصر، ووصفها له ورغبه فيها،

والتزم أنه يحمل خزائنها إليه يستعين بها على قتال الفرنج، فمال إليه، وجهز معه أسد الدين شيركوه بعساكر، فلما قاربوا مصر ندب إليهم الضرغام عسكراً وقدم عليه أخاه ناصر المسلمين، فلقيهم على بلبيس فانهزم العسكر المصري وعاد الى القاهرة.

وسار شاور والعساكر الشامية، فنزل بظاهر القاهرة في آخر الشهر، واجتمع معه خلق كثير من العربان، فعلم الضرغام أنه لاقبل له بما دهمه، فركب إلى القصر، وطاف به، وجعل ينادي العاضد، وهو يخاف أن ينزل إليه، فأرسل إليه العاضد يقول: أنج بنفسك، فخرج من القاهرة يريد مصر، ودخل شاور وشيركوه الى القاهرة، وندب جماعة في إثر الضرغام فأدركوه عند مشهد السيدة نفيسة، فقتلوه هناك في يوم الجمعة، لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، وطيف برأسه القاهرة على رمح، وبقيت جثته ملقاة بين الآكام ثلاثة أيام حتى أكلتها الكلاب. ودفن ما بقي منه عند بركة الفيل، وعمل عليه قبة، فكانت مدة ملك الضرغام تسعة أشهر.

وكان فارساً بطلاً، كريماً، عاقلاً، أديباً، يحب العلماء ويقربهم، وله مجلس يجتمع فيه أهل العلم والأدب دون غيرهم. وكان حسن الخط، يقال إنه كان يحاكي ابن البواب في خطه.

قال: ودخل شاور الى العاضد لدين الله في مستهل شهر رجب، فعاتبه على ما كان منه في إحضار العسكر الشامي، وحذره عاقبة ذلك، فوعده انه يصرفهم إلى بلادهم، فقبل ذلك منه، وخلع عليه خلع الوزارة.

ذكر غدر شاور بشيركوه

قال: ولما انتصب شاور في الوزارة، وتم له ما أراد، أخذ في التدبير على العسكر الشامي، وحلف الأمراء، وتخاذل عن شيركوه، وصار يخرج إليه بوجه عليه آثار الغضب، ففهم أسد الدين شيركوه عنه، وعلم شاور

أنه لاقبل له بشيركوه، فاستعان بالفرنج واستدعاهم من الساحل لنصرته، ووعدهم بالأموال، واتصل ذلك بأسد الدين فحاصر القاهرة.

واتصل خبر شاور بالملك العادل نور الدين فكتب الى أسد الدين وأعلمه بما بلغه من مباطنة الفرنج، وأمره بالخروج عن الديار المصرية، فأبى ذلك وتوجه الى بلبيس، واحتوى على بلاد الخوف، وجعل مدينة بلبيس ظهره، فاجتمعت العساكر المصرية ومن أتاهم من الفرنج، ونازلوا أسد الدين، وحصروه ببلبيس ثلاثة أشهر، وهو ممتنع بها لم يبرز إليهم، فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر على الفرنج ان نور الدين ملك حارم وسار الى بانياس، فراسلوا شيركوه يسألونه الصلح، فأجابهم الى ذلك، وخرج من مدينة بلبيس، فلما صار بظاهرها أشار شاور على ملك الفرنج بمهاجمته وقبضه فامتنع مري، ملك الفرنج، وأبى إلا الوفاء بيمينه لشيركوه.

وسار أسد الدين الى الشام، وعاد شاور الى القاهرة، ومعه طائفة من الفرنج يتقوى بهم، وكان قد بذل لهم على نصرته اربعمائة ألف دينار، ويهادنهم خمس سنين.

وكان دخول شاور إلى القاهرة لست مضين من ذي الحجة من السنة، واستمر بمصر من غير منازع، إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة.

ذكر عود أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية بالعساكر الشامية وانفصاله

قال المؤرخ: لما انفصل أسدالدين شيركوه عن الديار المصرية في سنة تسع وخمسين، بقي عنده منها أمر عظيم، وكان إذا خلا بنور الدين الشهيد يرغبه فيها، فجهزه بالعساكر والحشود، فسار من الشام في شهر

ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة، فاتصل ذلك بشاور، فراسل الفرنج وانتصر بهم، فخرج الفرنج ووقفوا على الطريق التي يسلكها شيركوه إلى الديار المصرية، فعدل شيركوه عن تلك الطريق وجعلها عن يمينه، وسار حتى نزل إطفيح، في سادس شهر ربيع الآخر. وعبر النيل إلى الجانب الغربي، ونزل الجيزة. وأقام عليها إلى العشرين من جمادى الأولى. واستولى على الغربية وغيرها. فأرسل شاور إلى الفرنج يستحثهم، فأتوا على الصعب والذلول، وقد طمعوا في ملك الديار المصرية.

فلما تكاملوا بالقاهرة توجه أسد الدين شيركوه نحو الصعيد، وسار شاور والفرنج في آثارهم، فجمع أسد الدين الأمراء واستشارهم للعبور إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، فوافقوا على ذلك، فنهض شرف الدين بزغش،أحد الأمراء المماليك النورية، وكان شجاعا مقداما، وأنكر ذلك كل الإنكار، وامتنع من الموافقة، وقال: من خاف من الأسرأو القتل فلا يخدم الملوك ويأكل رزقهم، ويكون في بيته عند امرأته. وقال: والله لانزال نقاتل إلى أن نقتل عن آخرنا أو ننتصر. فوافقه أسد الدين، وجمع عسكره ورتبهم، وجعل أثقاله في القلب ليكثر بها السواد ولئلا ينهبها أهل البلاد .

فبينما هم في التعبئة إذا بشاور والفرنج قد أقبلوا، ورتبهم واقتتلوا، فكانت الهزيمة على شاور والفرنج وتوالت عليهم الحملات من العسكر الشامي، فتمادت بهم الهزيمة إلى الجيزة، وشيركوه في آثارهم، وقتل منهم خلق وغرق كثير منهم، وأسر أسد الدين صاحب قيسارية.

ودخل شاور والفرنج إلى القاهرة، وملك أسد الدين البر الغربي بكماله، وقصد الإسكندرية ليحاصرها، فلما قرب منها خرج إليه أهلها وسلموها إليه من غير ممانعة، وكان والي الثغر يوم ذاك نجم الدين بن مصال، فدخل شيركوه البلد، وأقام بها أياما قلائل، واستناب بها صلاح

الديـن يوسف ابن أخيـه نجم الدين أيـوب، وتركه بها ومعه ألـف فارس. وتـوجه هـو إلى الصعيد فـاستولى عليـه، واستخـرج أموالـه، وصام شهـر رمضان بمدينة قوص.

هذا وشاور يتجهـز للخروج ويرتب أحـواله وأحوال الفرنـج ويرم ما تلف لهم، فلما تكـامل مـا يحتاج إليه قصـد الإسكندريـة، فأخـرج أهلها الأموال وأنفقوها، واستعدوا للحصار، فكـان في جملة ما أخرجوه للحصار أربعة وعشرون ألف قوس زنبورك وما يناسب ذلك من الآلات.

وسار شـاور ومري ملك الفـرنج، فنـازلوا الإسكندريـة، فلما رأوا شدة أهلها واجتماعهم على الحصار تقدم شـاور إليهم وقال: سلموا إلي صلاح الـديـن ومن معـه أضـع عنكـم المكـوس، وأعطيكم الأخماس، فـامتنعـوا وقالوا: معـاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيليـة، فعند ذلك وقع الحصار واشتد على أهل الإسكندرية إلى أن قلت الأقوات.

وبلـغ ذلـك أسـد الـديـن فسـار مـن الصعيـد وجـد في السير إلى الإسكندرية، وكان شاور قد أفسد التركمان الـذين مع أسد الدين فصاروا معه، واجتمـع لشيركوه طائفـة كبيرة من العربـان، فلما علم شاور بقـربه خافـه وراسله في طلـب الصلح، وبـذل له خمسين ألـف دينار، سـوى ما أخـذه من خـراج البلاد، على أن يفـارق الديـار المصرية، فـأجاب أسـد الدين إلى ذلك، وشرط عليهم أن يرجع هـو إلى الشام، ويرجع الفرنج إلى بلادهم. فاستقرت هذه القاعدة ، وحلف الفرنج عليها.

ففتحت الإسكندرية عنـد ذلك، وخرج صلاح الدين يـوسف إلى مري ملك الفرنـج وجلس إلى جانبه، فدخل شـاور عليهما، فقال لمري: سلمه إلي وأعطيك في كل سنـة خمسين ألف دينار، فقال مـري: نحن إذا حلفنا

لانغدر، ووبخه، وكان أسد الدين قد شرط على شاور أن الفرنج يرحلون ولايلتمسون من البلاد درهماً ولاضيعة ولاغير ذلك.

قال: وارتحل أسد الدين، ودخل مصر برضاء أهلها، وسار إلى بلبيس، وأرسل إلى ابن أخيه يوسف أن يتوجه في المراكب إلى عكا، هو ومن معه من العسكر، وما معه من الاثقال، ففعل ذلك، وركب من عكا إلى دمشق.

هكذا حكى ابن جلب راغب في تاريخه، قال: وارتحل أسد الدين من بلبيس في نصف شوال، ودخل شاور الإسكندرية، ثم خرج منها وعاد إلى القاهرة، فدخلها في مستهل ذي القعدة، وتلقاه العاضد لدين الله.

وأما الفرنج، فاستقر بينهم وبين شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم في كل سنة مائة ألف دينار.

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة خرج يحيى بن الخياط على شاور وطلب الوزارة، فندب شاور عسكراً لحربه، فانهزم ومضى إلى بلاد الفرنج.

ذكر وصول الفرنج إلى القاهرة وحصارها وحريق مصر

قال المؤرخ: وفي سنة أربع وستين وخمسمائة عاد الفرنج إلى القاهرة، وذلك أنهم لما توجهوا في سنة اثنتين وستين رتبوا في القاهرة جماعة من أبطالهم وشجعانهم وفرسانهم ليحموها من عسكر يأتي إليها من الشام، فلما رأوا خلو مصر من الأجناد راسلوا ملكهم مري واستدعوه، وكان من الشجاعة والمكر على أمر عظيم، فامتنع وقال: الرأي ألا نقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تحمل إلينا نتقوى بها على قتال نور الدين، وإن قصدناها حمل أصحابها الخوف على تسليمها لنور الدين، وإن أخذها وجعل فيها مثل أسد الدين شيركوه فهو هلاك الفرنج وخروجهم من الشام، فلم يقبلوا رأيه، وقالوا: ما يصل عسكر نور الدين إلينا إلا وقد ملكناها، وغلبوا على رأيه.

فتجهز الفرنج وساروا حتى وصلوا الى مدينة بلبيس ونازلوها، فوقع الإرجاف بمصر، وشرع شاور في إنشاء حصن على مصر واستعمل فيه الناس، فلم يبق أحد إلا وعمل فيه، وحفر خندقاً، وملك الفرنج بلبيس عنوة، وسبوا وقتلوا خلقاً كثيراً. وكان معهم بعض الأمراء المصريين ممن هرب من شاور، منهم يحيى بن الخياط.

ثم ساروا الى القاهرة وأحاطوا بها، وذلك في العاشر من صفر، فخاف أهلها إن أهملوا القتال ان يحل بهم ما حل بأهل بلبيس، فجدوا في القتال والاحتراز.

قال: ولما قرب الفرنج من القاهرة أمر شاور بنهب مصر وإحراقها، فأحرقت في تاسع صفر، ونهبت، وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة، فانتقل بعضهم، وتحصن البعض بالجزيرة، وتوجه آخرون في المراكب إلى ثغري الإسكندرية ودمياط، وطائفة إلى الوجه القبلي، وتفرقوا وذهبت أموالهم، كل ذلك قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم

قال: وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، إلى حادي عشر شهر ربيع الآخر.

قال: ولما علم العاضد لدين الله عجز أهل القاهرة عن مقاومة الفرنج أرسل إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يستغيث به، وسير إليه شعور نسائه في طي الكتب.

وقيل إن شاور أرسل إلى نور الدين أيضاً.

وأرسل شاور إلى مري ملك الفرنج يذكره بسابق الصحبة والعهود القديمة، وقرر أن يحمل إليه ألف ألف دينار، فأجاب مري إلى ذلك وقال لأصحابه: نأخذ المال ونتقوى به ونمضي ثم نرجع فلا نبالي بعد ذلك بنور الدين، فاستوثق شاور منه بالأيمان وعجل له مائة ألف دينار، وماطله بالبقية، وشرع يجمع له من أهل القاهرة المال، فلم يحصل له من جهتهم غير خمسة آلاف دينار لضعفهم.

هذا والرسل تتتابع الى الملك العادل ويستغيثون به، وقرر له ثلث الديار المصرية.

قال: ولما وصلت الكتب إليه طلب أسد الدين شيركوه من حمص، فسار منها إلى حلب في ليلة واحدة، فجهزه نور الدين وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والسلاح وغير ذلك، فاختار أسد الدين من العسكر ألفي فارس من الأقوياء، وستة آلاف من بقية العسكر، وأنفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً، ثم سار شيركوه، فكان خروجه من دمشق في منتصف شهر ربيع الأول، وأردفه نور الدين بجماعة من الأمراء، منهم مملوكه عز الدين جرديك، وشرف الدين بزغش وعين

الدولة الياروقي. وناصح الدين خمارتكين، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، وغيرهم، والله أعلم.

ذكر قدوم أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ورحيل الفرنج عنها

قال: وقدم أسد الدين شيركوه بالعساكر، فكان وصوله إلى مصر في يوم الثلاثاء لليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة، ولما بلغ الفرنج قربه عادوا عن القاهرة إلى بلادهم، وكان رجوعهم في يوم السبت ثالث شهر ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألف نفس، ودخل أسد الدين القاهرة في سابع شهر ربيع الآخر، وخرج إليه العاضد لدين الله وتلقاه، وحضر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإيوان وجلس إلى جانب العاضد، وخلع عليه، وفرح الناس بقدومه. وعاد أهل مصر إليها، وشرعوا في إطفاء النيران وإصلاح ما تشعث، وكانت سقوف جامع عمرو بن العاص بمصر قد احترقت فجدده الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

قال: وأمر العاضد أسد الدين شيركوه بالنزول على شاطىء النيل بالمقس، ورتب له شاور ولمن معه الإقامات الوافرة، وأظهر له وداً كثيراً، وصار يتردد إليه في كل يوم، فطلب أسد الدين من شاور مالاينفقه في عسكره، فمطله فسير إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكاري يطالبه بالنفقة ويقول له: إن العسكر قد طال مقامهم وطالبوا بالنفقة وتغيرت قلوبهم عليك، وإني أخشى عليك منهم، فلم يكترث شاور بذلك، وشرع في المماطلة فيما كان قرره لنور الدين.

وعزم شاور على ان يصنع دعوة، ويحضر أسد الدين وجماعة الأمراء الذين معه الى داره، ويقبض عليهم، ويستخدم من معه من الجند فيمتنع

بهم من الفرنج. فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وحلف انه إن صمم على هذا الأمر عرف به شيركوه، فقال له أبوه: والله لئن لم تفعل هذا قتلنا عن آخرنا، فقال الكامل لأبيه: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين الفرنج إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين ما أغاثه، ويملكون البلاد، فترك ما عزم عليه، واتصل ذلك بالعاضد فأعلم شيركوه.

ذكر مقتل شاور

كان مقتله في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر من السنة.

وذلك ان الأمراء النورية، لما رأوا مماطلته بالنفقة، وبلغهم أنه قد عمل على القبض عليهم اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك، وغيرهما، على قتله وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه، واتفق أن شيركوه، خرج لزيارة قبر الإمام الشافعي هذا اليوم، وحضر شاور له على عادته، فقيل إنه توجه للزيارة، فقال: نتوجه إليه، فتوجه ومعه يوسف وجرديك وهما يسايرانه، فأنزلاه عن فرسه، وكتفاه، فهرب عنه أصحابه، فجعلاه في خيمة، وأحاط به جماعة ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فحضر من القصر جماعة من قبل العاضد، يستحث على قتله، وحضر أسد الدين إلى المخيم ورسل العاضد تتواتر لأسد الدين يأمره بقتله، فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد على رمح.

ومضى أولاه إلى القصور، واستجاروا بالعاضد، فقتلوا بعد العقوبة الشديدة، في يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الأولى منها، وهم: الكامل، والمعظم، وركن الإسلام، وتأسف شيركوه بعد ذلك على الكامل لأنه بلغه ما جرى بينه وبين أبيه.

قال: ولما قتل شاور استدعى العاضد أسد الدين شيركوه، فدخل إلى القاهرة في الساعة التي قتل فيها شاور، فرأى العوام وقد اجتمعوا، فهاله ذلك، فقال لهم: ان مولانا العاضد لدين الله أمير المؤمنين يأمركم أن تنهبوا دور شاور، فتفرق الناس عنه، ونهبوها. ودخل شيركوه إلى القصر، فتلقاه العاضد وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش. ولم تطل مدته في الوزارة حتى توفي الى رحمة الله تعالى بعد خمسة وستين يوماً، وقام بالأمر بعده الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، على ما نذكره إن شاء الله في أخبار الدولة الأيوبية.

ذكر انقراض الدولة العبيدية

والخطبة للمستضىء بنور الله العباسي

كان انقراض هذه الدولة عند خلع العاضد لدين الله، وذلك في يوم الجمعة لسبع مضين من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة.

وكان سبب ذلك أن صلاح الدين يوسف لما ثبتت قدمه في ملك الديار المصرية واستمال الناس بالأموال، قتل مؤتمن الخلافة جوهراً، زمام القصور، ونصب مكانه قراقوش الأسدي الخصي خادم عمه، ثم كانت وقعة السودان، فأفناهم بالقتل، على ما نذكره إن شاء الله مستوفى في اخباره، ثم أسقط من الأذان قولهم «حي على خير العمل»، وابطل مجلس الدعوة، وضعف أمر العاضد معه إلى الغاية فعند ذلك كتب الملك العادل نور الدين إلى الملك الناصر صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، والخطبة للخليفة المستضىء بنور الله، وكان المستضىء قد راسله في ذلك. فامتنع صلاح الدين، وكره إزالة هذه الدولة. فكتب إلى الملك العادل يعتذر، وقال: إن فعلنا هذا الأمر لانأمن من قيام أهل مصر علينا لميلهم إلى هذه الدولة، وكان قصد صلاح

الدين ان يتقوى بـالعاضد على نور الدين إن هو أراد الـدخول إلى الديار المصرية.

فلما ورد جوابه على نـور الدين بالاعتـذار انزعج لذلـك، ورادف رسله إليه يأمره بخلع العاضد والقبض عليه.

فـاستدعـى الملك النـاصر الأمراء واستشـارهم في ذلـك، فمنهم مـن حذره، ومنهم من هـونه عليه، فأحضر الفقيه اليسع بـن يحيى بن اليسع، وعرفـه الحال، فلما كان في هذه الجمعـة صعد إلى المنبر بجامـع مصر قبل طلوع الخطيـب، ودعا للمستضـىء بنور الله، فلـم ينكر عليـه أحد، فلما كـان في الجمعة الثـانيـة أمر الملـك النـاصر الخطبـاء بمصر والقاهـرة أن يخطبـوا للمستضـىء بنور اللـه أبي محمـد الحسـن، بـن المستنجد بـاللـه العباسي، فخطبوا له.

ثم توفي العاضد لدين الله إثـر هذا الخلع، في يوم عاشوراء من السنة، بعد ثلاثـة ايام من خلعه، وكـان ضعيفاً لما قطعت خطبته، فقـال صلاح الدين: لاتعلموه، فإن عوفي أعلمناه، وإن توفي فلا نفجعه بهذه الحادثة.

وقـال بعض المؤرخين: إن صـلاح الديـن لما قطع خطبتـه دخل عليـه وقبـض عليـه واعتقله، فلما رأى ذلـك كـان في ذخـائره فص في خـاتـم، فمصه، فمات لوقته، فكـان صلاح الدين يقول: ندمـت كوني دخلت على العاضد وفعلت به ما فعلت، وكان أجله قد قرب.

ولما مات جلـس الملك الناصر للعـزاء به. فكـانت مدة ولايتـه إحدى عشرة سنة وخمسـة أشهر وتسعة عشر يـوماً ،مـولده في يوم الثـلاثاء لعشر بقين مـن المحـرم سنـة ست واربعين وخمسمائة، فعمـره على هـذا إحـدى وعشرون سنة إلا أحد عشر يوماً.

وكان لـه من الاولاد ثلاثـة عشر، وهم :علي، ومـوسى، وعبد الكـريم، وأبـو الحجاج يـوسف، وأبـو الفتوح، وإبـراهيم، وجعفـر، ويحيى، وعبـد القـوي، وعبـد الصمد، وأبـو البشر، وعيسـى، فـاعتقلهم الملـك النـاصر بأجمعهم، واستمـروا في الاعتقال إلى سنة اثنتين وستمائة، فكان مـن امرهم ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية.

ووزر له مـن ذكرنا أخبـارهم، وهم: الصالـح أبو الغارات طـلائع بن رزيك، ثم ولده العادل رزيك، ثم شـاور، ثم الضرغام، ثم عاد شاور، ثم أسد الدين شيركوه، ثم الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

قضاتـه: أبو القاسم هبـة الله بن الكامـل، وأبو الفتح عبد الجبـار بن إسماعيل بن عبد القـوي، ثم الأعز أبو محمد الحسن بـن علي بن سلامة، ثـم أعيد عبـد الجبـار، ثم أعيـد ابـن كامـل، ثـم صرف على أيام الملـك الناصر بالقاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن درباس.

وكان العـاضد شديـد التشيع متغالياً في سـب الصحابة، رضـوان الله عليهم أجمعين، إذا رأى سنياً استحل دمه.

جامع أخبار الدولة العبيدية ومدتها ومن ملك من ملوكها

كانـت مدة تغلـب ملوك هذه الـدولة على البلاد منـذ أخرج أبـو عبد الله الشيعـي عبد الله، المنعـوت بالمهـدي، من سجلماسة، ومـن سجن اليسـع بن مـدرار إلى أن مـات العاضـد هذا مـائتـي سنة وسبعين سنـة وشهوراً، منهـا ببلاد الغـرب، منذ دخـل عبيد اللـه المهدي رقـاده إلى أن وصل المعز لـدين الله إلى القاهـرة أربع وستون سنة وعشرة أشهـر وخمسة وعشرون يوماً، وبـاقي هذه المدة بمصر والشام، إلى أن انقطعـت دعوتهم بخـروج عسقلان عـن يـد المسلمين واستيـلاء الفرنـج عليهـا، في جمادى

الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، في أيام الظافر بأعداء الله في وزارة عباس بن يحيى بن تميم.

وعدة من ملك منهم أربعة عشر ملكاً تسموا كلهم بالخلافة، وهم: عبيد الله المنعوت بالمهدي، ثم ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، ثم ابنه المنصور بنصر الله أبو الظاهر إسماعيل، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد، وهو أول من ملك الديار المصرية والبلاد الشامية منهم، وإليه تنسب القاهرة المعزية، ثم ابنه العزيز بالله أبو المنصور نزار، ثم ابنه الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور، ثم ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم، وقيل أبو الحسن، علي، ثم ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد، ثم ابنه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد، ثم ابنه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور، ثم ابن عمه الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمد ابن المستنصر بالله، ثم ابنه الظافر بأعداء الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ، ثم ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر، ثم ابن عمه العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، وعليه انقرضت دولتهم، وانتهت أيامهم، وباد ملكهم، فلم يعد إلى وقتنا هذا.

قال المؤرخ: ولما خلع العاضد ومات واعتقل الملك الناصر صلاح الدين يوسف أولاده بالقصور مر القاضي الأرشد عمارة اليمني الشاعر بالقصور، وهي مغلقة الأبواب، مهجورة الجناب، خاوية على عروشها، خالية من أنيسها، فأنشأ قصيدته المشهورة التي رثى بها القصور وأهلها، وهي من عيون المراثي وأولها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور، فإن
قدرت من عثرات الدهر فاستقل

هـدمـت قـاعـدة المعـروف عـن عجـل
سقيـت مهـلاً، أمـا تمشي على مهـل
لهفـي ولهف بنـي الآمـال قـاطبـة
على فجيعتنـا في أكـرم الـدول
قـدمـت مصر فـأولتنـي خـلائفهـا
مـن المكـارم مـا أربـى على الأمـل
قـوم عـرفـت بهم كسـب الألـوف ومـن
جمالها أنها جـاءت ولم أسـل

منها:
يـا عـاذلي في هـوى أبنـاء فـاطمـة
لـك الملامـة إن قصرت في عـذلي
بـالله زر سـاحة القصريـن، وابـك معـي
عليهما، لاعلى صفين والجمـل
وقـل لأهلهما: والله مـا التحمـت
فيكـم جـراحـي، ولا قـرحـي بمنـدمـل
مـاذا تـرى كـانـت الإفـرنـج فـاعلـة
في نسـل آل أمير المؤمنين علي
هـل كـان في الأمـر شيء غير قسمـة مـا
ملكتـم بين حكـم السبـى والنفـل
وقـد حصلتـم عليهـا واسـم جـدكـم
محمـد، وأبيكـم غير منتقـل
مـررت بـالقصر، والأبـواب خـاليـة
مـن الـوفـود، وكـانـت قبلـة القبـل
فملـت بـوجهـي خـوف منتقـد
مـن الأعـادي، ووجـه الـود لم يمـل
أسلـت مـن أسفـي دمعـي غـداة خلـت
رحـابكـم، وغـدت مهجـورة السبـل

ـ ١٠٥٢٩ ـ

أبكـــي على مـــا أثـــرات مـــن مكـــارمكـــم
حـــــال الـــــزمـــــان عليهـــــا، وهـــــي لم تحل

وهي قصيدة مشهورة مطولة.

ولما انقرضت هذه الـدولة قامت الدولة الأيوبية على مـا نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار ملوكهم والله أعلم.